

منطقة عسير خلال خمسة عقود

(١٣٨٠ - ١٤٣٠ هـ / ١٩٦٠ - ٢٠١٠ م)

(مشاهدات ، انطباعات ، رؤى) (*)

أ. د. غيثان بن علي بن جريس

(*) دراسة منشورة في كتاب : القول المكتوب في تاريخ الجنوب، لغيثان بن جريس،

(الطبعة الأولى) (الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م)، (الجزء الثاني)،

ص ص ٢٤١ - ٢٩٦ . (الطبعة الثانية) (الرياض: مطابع الحميضي ١٤٤٢ هـ / ٢٠٢٠ م)،

ص ص ٢٤٧ - ٢٩١ .

القسم الثاني

منطقة عسير خلال خمسة عقود

(١٣٨٠ - ١٤٣٠ هـ / ١٩٦٠ - ٢٠١٠ م)

(مشاهدات ، انطباعات ، رؤى)

إعداد :

أ. د. غيثان بن علي بن جريس

أستاذ التاريخ - جامعة الملك خالد

فهرس القسم الثاني :

رقم نصفحة	الموضوع	م
٢٤٤	أولاً : مقدمة	- ١
٢٤٤	ثانياً : الوضع الجغرافي	- ٢
٢٤٦	ثالثاً : الوضع السياسي والإداري	- ٣
٢٥١	رابعاً : الوضع الاجتماعي	- ٤
٢٥١	١- طبقات المجتمع	
٢٥٤	٢- الأسرة	
٢٥٦	٣- العمارة وأنواعها	
٢٥٩	٤- الألبسة والزينة	
٢٦١	٥- الأطعمة والأشربة	
٢٦٤	٦- عادات وتقاليد اجتماعية	
٢٦٤	أ - الزواج	
٢٧٠	ب - الختان	
٢٧١	ج - المآتم	
٢٧٢	د - التكافل والتعاون الاجتماعي	
٢٧٤	هـ - نشاطات اجتماعية أخرى	
٢٧٥	١ - التلفاز (الرائي) أو ما يسمى بالدش ..	
٢٧٧	٢ - الإنترنت	
٢٧٨	٣ - المنتديات والمكتبات العلمية الاجتماعية	

تابع فهرس القسم الثاني :

رقم لصفحة	الموضوع	م
٢٧٩ خامساً : الوضع الاقتصادي	- ٥
٢٨٠ ١- الرعي ، والصيد ، والجمع والالتقاط	
٢٨٢ ٢- الزراعة	
٢٨٢ ٣- المهن والحروف اليدوية	
٢٨٤ ٤- التجارة	
٢٨٥ سادساً : الوضع التعليمي ، والفكري ، والثقافي	- ٦
٢٩٢ سابعاً : الخاتمة : نتائج وتوصيات الدراسة	- ٧

أولاً : مقدمة :

منطقة عسير مصطلح حديث لا يتجاوز تاريخه قرناً من الزمان ، مع أن هذه المنطقة عرفت منذ قرابة قرنين ونصف باسم بلاد عسير ، أو إقليم عسير وقد خرج العديد من البحوث والدراسات التي أوضحت هذا الجانب^(١) ، وهذه المنطقة التي نعينها في هذا البحث ، هي البلاد المعروفة في وقتنا الحالي والممتدة من ظهران الجنوب ، والحريضة ، ودرب بني شعبة جنوباً إلى بيشة ، وشران ، وقمامة بني عمرو ، وثريبان شمالاً^(٢) . وفي هذه الدراسة سوف يكون لنا وقفات مع عدد من المحاور تصور من خلالها التطور التاريخي الذي مرت به هذه البلاد، وذلك من خلال مشاهداتنا، وانطباعاتنا ، وما روي لنا وسمعناه خلال نصف قرن من الزمان .

(١٣٨٠ - ١٤٣٠ هـ / ١٩٦٠ - ٢٠١٠ م)^(٣) .

ثانياً الوضع الجغرافي :

إن المتجول في هذه البلاد العسيرية يشاهد التنوع الجغرافي الطبيعي والبشري، فالجبال السروية الممتدة من ظهران الجنوب جنوباً إلى بلاد شران وخثعم وعلبان شمالاً تمثل الحد الفاصل بين الناحيتين الغربية والشرقية في المنطقة نفسها ، بل هي

(١) للمزيد انظر ، علي أحمد عسيري . عسير (١٤٢٩ / ١٨٣٣ هـ - ١٢٧٩ - ١٨٧٢ م) (أبها : نادي أبها الأدبي ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ٢١ وما بعدها ، غيثان بن علي بن جريس . صفحات من تاريخ عسير ، الرياض : مكتبة العبيكان ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م) ، الجزء الأول والثاني ، ص ١٣ - ٢١ ، وللمؤلف نفسه انظر كتاب : أبها حاضرة عسير (الرياض : مطابع الفرزدق ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م) ، ص ١٤ وما بعدها .

(٢) الباحث تجول في ربوع هذه البلاد منذ نعومة أظفاره حتى الآن ولا زالت بحاجة إلى دراسات علمية أكاديمية في شتى الجوانب .

(٣) مشاهدات الباحث في هذه النواحي ، ولقاءاته مع جميع فئات المجتمع خلال عدة عقود من الزمن .

أعلى مناطق عسير ارتفاعاً ، وأكثرها مأهولة بالسكان ، وأشد برودة في الشتاء ، والأفضل مناخاً في الصيف^(١)

أما المناطق الغربية ، أو التهامية فهي أشد حرارة في الصيف ، معتدلة في الشتاء ، وكذلك الأجزاء الشرقية ، وربما أطلق عليها قديما البادية وجمعها بوادٍ فيظهر فيها البرد في الشتاء ، وربما اشتد الحر بها في الصيف^(٢).

وتضاريس ومناخ هذه النواحي الثلاث شكل طبيعة حياة الناس بها قديماً ، فالسروات تكاد تكون العمود الفقري لعموم المنطقة ، وذلك لتوفر المزروعات المتنوعة بها ، بالإضافة إلى البيوت الرئيسة للأعيان ومشايخ القبائل ، وكذلك المراكز الإدارية وأحيانا التجارية^(٣). وطبيعة هذه البلاد صعبة في جبالها ، ودروبها ، وأوديتها، وبخاصة ما يخرج منها إلى البلدان الشرقية والغربية في المنطقة نفسها . أما مياهها ، وغاباتها ، وثروتها الحيوانية والنباتية فكانت متوفرة بكثرة ، وليس هذا الأمر مقتصرًا على السروات فقط وإنما كان سائداً في أنحاء المنطقة^(٤).

هكذا كان وضع المنطقة جغرافياً حتى أوائل القرن الخامس عشر الهجري ، وعندما زادت خيرات الدولة ، وخرج أهل هذه البلاد إلى المدن والحواضر الأخرى في المملكة من أجل التجارة ، أو الدراسة ، أو الحصول على الوظيفة ، بدأت جغرافية البلاد تتأثر سلباً وإيجاباً في الوقت نفسه ومن الأمثلة السلبية هجرة الكثير

(١) مشاهدات الباحث وانطباعاته عن هذه الديار ، وللمزيد عن تضاريس ومناخ بلاد عسير انظر:

عبد الرحمن الشريف . جغرافية المملكة العربية السعودية . إقليم جنوب غرب المملكة .

(الرياض : دار المريخ ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م) ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ وما بعدها .

(٢) المراجع نفسها .

(٣) المراجع نفسها .

(٤) انظر : فؤاد حمزة . في بلاد عسير (الرياض : مكتبة النصر الحديثة ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م)

ص ٥١ وما بعدها ، غيثان بن جريس . عسير (١١٠٠ - ١٤٠٠هـ) (جدة : دار البلاد

للطباعة ١٤٥٢هـ / ١٩٩٤م) ، ص ١٩ وما بعدها .

من الأفراد من قراهم ومزارعهم وبواديهم ، وهذا مما سبب لأوطانهم الهجران ثم الخراب والدمار^(١) ، كذلك رجوع الكثير من هاجر إلى أوطانهم ومعهم المال الذي سخروه في بناء منازل حديثة لهم مع استخدام الآلات الحديثة التي تعبر الجبال والأودية وتحتاج إلى طرق واسعة ، وهذا مما أثر على الغطاء النباتي في جميع أجزاء البلاد . كما أن شق طرق رئيسة في المنطقة نفسها ، وطرق فرعية أخرى تربط المدن والقرى بعضها مع بعض كان لها جانب سلبي كبير على جمال الأرض وطبيعتها ، بل إن الكثير من الغابات والثروة النباتية نالها الكثير من الهلاك^(٢) . ناهيك عن الحجر ، والقرى ، والمدن الحديثة التي أنشئت في العقود الأربعة الأخيرة ، كيف حلت مشاكل سكانية وتنموية كثيرة ، ولكنها أثرت سلباً على جغرافية البلاد الطبيعية .

ثالثاً: الوضع السياسي والإداري :

بلاد عسير كانت من نواحي المملكة التي تهيمن عليها سطوة القبائل والعشائر المتعددة المتصارعة فيما بينها^(٣) . وجاء الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود فاختار أمراء أقوياء استطاعوا أن يسوسوا البلاد . ولسنا هنا بصدد الحديث عن كل أمير من أمراء عسير وما بذل من جهود في توفير الأمن والأمان لعموم السكان . وعندما توفي الملك عبد العزيز عام (١٣٧٣هـ / ١٩٥٣م) ، كانت عموم بلاد

(١) في أيامنا هذه انتهت الدولة لهذا الأمر فصارت تضاعف جهودها لتوفير جميع الخدمات في القرى والأرياف كي تحمى من هجرة سكانها إلى المدن والمراكز الحضرية .

(٢) من عاصر العقود الخمسة أو الستة الماضية وما نعيشه اليوم يدرك صحة ما ذهبنا إليه ، وما نتج من آثار سلبية على الثروات الطبيعية بجميع أنواعها وأشكالها .

(٣) من يستقرىء تاريخ هذه البلاد منذ فجر الإسلام حتى العصر الحديث يجد القبيلة كانت صاحبة السيطرة الكاملة على مواطنها ومواطنيها ، ولكن في عهد الدولة السعودية الثالثة تبدل الوضع ، وصارت السيطرة للدولة ومؤسساتها الإدارية التي تعمل على ضبط الأمن ونشر العدل وحفظ حقوق الناس .

عسير محكومة بالقانون الذي مصدره كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وأصبحت معظم المؤسسات الإدارية الرئيسة موجودة في منطقة عسير مثل : خميس مشيط ، ومحائل عسير ، وبيشة ، والنماص^(١) . وكان نفوذ مدينة أبها السياسي والإداري يمتد أحيانا في بعض القضايا والمهمات إلى مناطق نجران ، وجازان ، والباحة ، والقنفذة^(٢) . ومنذ عهد الملك سعود بن عبد العزيز (١٣٧٣ - ١٣٨٤ هـ / ١٩٥٣ - ١٩٦٤ م) ، ثم الملك فيصل بن عبد العزيز (١٣٨٤ - ١٣٩٥ هـ / ١٩٦٤ - ١٩٧٥ م) بدأ الوضع السياسي والإداري أكثر استقراراً وانضباطاً ، وخفت الصراعات العشائرية ، وأصبح هناك قانون يحكم الجميع ، وأنشئت مؤسسات إدارية في معظم المدن الكبرى في منطقة عسير^(٣)

ومنذ تسعينيات القرن الماضي إلى العقد الثالث من القرن الحالي كان نجل الملك فيصل (خالد الفيصل) هو الذي يتولى دفة الأمور السياسية والإدارية والمالية في المنطقة ، وشهدت البلاد في عهده نمواً وتطوراً هائلاً في شتى المجالات والقطاعات المختلفة . واستطاع هذا الأمير النابه أن ينقل المنطقة من حياة البدو والضعف إلى محيط الحضارة والتمدن^(٤) . وفي فترة إمارته ، أثناء حكم عمه الملك فهد بن عبد العزيز (١٤٠٢ - ١٤٢٦ هـ / ١٩٨٢ - ٢٠٠٥ م) طرأ على نظام الإدارة في المملكة استحداث مسميات إدارية جديدة ، مثل : المحافظة

(١) للمزيد انظر كتابنا : عسير في عصر الملك عبد العزيز (جدة : دار البلاد للطباعة والنشر ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م) ، ص ٢٠ - ١٠٢ .

(٢) المرجع نفسه ، وللمزيد انظر : كتاب أبها حاضرة عسير (دراسة وثائقية) ، ص ١٥ وما بعدها .
(٣) هذه الفترة الخاصة بعهدي الملكين سعود و فيصل لازالت بحاجة إلى دراسات علمية أكاديمية هذا أن نرى بعض الباحثين وطلابنا في برامج الدراسات العليا أن يلتفتوا إلى مثل هذه الموضوعات الهامة .

(٤) مكث خالد الفيصل أميراً على منطقة عسير حوالي أربعة عقود ، وتلك الفترة غنية بإنجازاتها ومشاريعها الجبارة ، وهي فترة أخرى تستحق البحث والدراسة .

بدلاً من إمارة ، أو محافظ بدلاً من أمير ، وهكذا، وأنشئت مراكز في جميع أنحاء البلاد من أجل التسهيل على الناس ومساعدتهم في أمور حياتهم ، والقيام على متابعة التنمية الأمنية والاقتصادية التي انتشرت في جميع المدن والقرى والأرياف والهجر^(١).

وفي العقود الخمسة الأخيرة طرأ داخل المملكة وخارجها أحداث وإرهاصات سياسية عديدة ، مثل :

١- حرب اليمن عام (١٣٨٢ - ١٣٨٧هـ / ١٩٦٢ - ١٩٦٧ م) التي امتدت شرورها إلى جنوبي البلاد السعودية^(٢). وقامت الطائرات المصرية بضرب مدينة أبها ، وألحقت الأضرار ببعض المباني الحكومية والأهلية . وكانت الحكومة السعودية في عهد الملك فيصل تسعى إلى حل المشكلة بحكمة وتعقل^(٣) . واستمرت العلاقات الحدودية متوترة بين اليمن والسعودية حتى عهدي الملكين فهد ، ثم عبد الله بن عبد العزيز^(٤) وأخيراً

(١) وللمزيد عن هذه التنظيمات الإدارية انظر: المملكة العربية السعودية في مائة عام (بحوث ودراسات)، عدد من الدراسات المنشورة عن طريق دار الملك عبد العزيز بمناسبة مرور مئة عام على تأسيس المملكة (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧ م) ، ج٥، ص ٩ وما بعدها .

(٢) للمزيد من التفاصيل عن حرب اليمن والتدخل المصري في شؤون اليمن ، انظر: مجموعة من المؤلفين السوفييت . تاريخ اليمن المعاصر (١٩١٧ - ١٩٨٢ م) ترجمة علي البحر (القاهرة : مكتبة مدبولي ، ١٩٩٠ م) ، ص ١٣٢ وما بعدها ، أحمد محمد الشامي . رياح التغيير في اليمن (جدة : دار العلم للطباعة والنشر ، ١٩٨٤ م) ، ص ٣٢ ، أحمد جابر عفيفي . (الحركة الوطنية في اليمن (دمشق : دار الفكر، ١٩٨٢ م) ، ص ٣٤٣ ، سعيد محمد باديب . الصراع السعودي المصري حول اليمن الشمالي (لندن : دار الساقى ، ١٩٩٠ م) ، ص ١٥١ وما بعدها ، أحمد يوسف أحمد . الدور المصري في اليمن (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨١ م) ، ص ٣٧٢ وما بعدها .

(٣) المراجع نفسها .

(٤) خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز تولى حكم البلاد عام (١٤٢٦هـ /

تم الصلح بين الطرفين ورُسِّمت الحدود بين الدولتين . والبلدان يعيشان الآن في أحسن حال ^(١).

٢- حركة جهيمان وأعوانه عام (١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م) الذين تمردوا على الدولة واتخذوا من الحرم المكي موقعاً لانطلاقهم . والمؤسف أنه انخرط في زمرة هذا الثائر الكثير من الموتورين أو المغرر بهم من أنحاء المملكة العربية السعودية ، وكان بعضهم من منطقة عسير ^(٢).

٣- حروب صدام حسين مع إيران ، ثم مع العراق ثم مع الدول الغربية وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية . والمملكة العربية السعودية كانت في الصدارة مع دول العالم في التعامل مع هذه الحروب وبذل الجهود القصوى للحفاظ على مقدساتها ومواطنيها ^(٣).

٤- حروب أفغانستان ، ومشاركة الكثير من السعوديين في الجهاد الأفغاني ، ومن بين أولئك المشاركين بعض العسريين الذين ذهبوا إلى تلك الحروب ثم

(١) إن حنكة خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز جعلت العلاقات بين جمهورية اليمن والمملكة العربية السعودية تعيش أفضل عصورها من التقارب والصلوات الحميمة .

(٢) للمزيد عن أسباب حركة جهيمان وكيف تم التعامل معها ، انظر: جريدة عكاظ سنة (٢٠) العدد (٤٩٢٢ ، ٤٩٢٤ ، ٤٩٢٨) في (٢ ، ٤ ، ٨ / ١ / ١٤٠٠هـ) ، للمزيد انظر : نوال محمد خياط . الملك / خالد بن عبد العزيز (١٣٣١ - ١٤٠٢هـ / ١٩١٣ - ١٩٨٢م) . رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية . قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م) . الجزء الثاني ، ص ٦١٦ - ٦٢١ .

(٣) لقد عاصر الباحث تلك الفترات الصعبة ، وما شعر به الناس في داخل البلاد من خوف ورعب ، ولكن ثبات حكام آل سعود وحسن سياستهم جنب البلاد مخاطر جسيمة كادت أن تأتي على الأخضر واليابس . وللمزيد يتم الاطلاع على مئات الأبحاث والدراسات والمقالات المنشورة بجميع اللغات في هذا الباب .

عادوا بأفكار إرهابية تخريبية ، وبعضهم قتلوا هناك أو لازالوا يعيشون في بلاد أفغانستان وباكستان حتى الآن .

٥- الاعتداء على أبراج التجارة في مدينة نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية ، واتهام عشرات السعوديين بالدور الذي لعبوه في ذلك التفجير ، وغالبية المتهمين من جنوبي البلاد السعودية وبينهم بعض العسرين^(١) .

هذه بعض النماذج السياسية المحلية والإقليمية والعالية التي وقعت في الخمسين سنة الماضية ، والتي كان لبعض العسرين فيها مشاركة أو علاقة ثانوية أو أساسية حسب كل حالة . والسؤال الذي يطرح نفسه : ما موقف عموم سكان منطقة عسير مما سبق الإشارة إليه أو ما شابه هذه الحالات ؟ والجواب باختصار : أن الرأي العام والرأي الرسمي كان مع الدولة في جميع قراراتها التي اتخذتها مع كل حالة على انفراد . وإذا كان هناك أفراد شاذون خرجوا بطوع إرادتهم وانخرطوا في بعض الأعمال السياسية أو التدميرية ، كحركة جهيمان مثلاً فهم لا يمثلون الدولة ، أو حتى المناطق التي ينتمون إليها ، والدولة السعودية لديها رؤية واضحة في التفريق بين المخرب وعشيرته أو عزوته ، فهي لا تأخذ بجريرة أحد وإنما تطبق العقوبة على الذي ارتكب الجرم فقط . وقد شاهدنا كثيراً من هذه الأمثلة مع بعض الأفراد الذين قاموا بالتفجيرات وبعض الأعمال التخريبية في البلاد خلال السنوات الخمس عشرة الماضية^(٢) .

(١) هذا ما عُرف وما قاله الرأي العام ، لكن الحقيقة لازالت إلى الآن مفقودة ، وربما يظهر مستقبلاً حقائق تؤيد ما سمع به الناس ، أو تكذيبه ويظهر حقائق أخرى لا نعرفها حتى الآن .

(٢) ومنهج الدولة وموقفها واضح للقاصي والداني حتى الآن ، فهي دولة وسط ، تأسست وتطورت على منهج الوسطية ، وهو منهج أهل السنة والجماعة .

رابعاً : الوضع الاجتماعي :

١- طبقات المجتمع : القبائل والعشائر العربية هي ولا زالت صاحبة اليد في السيطرة على مواطنها . في الماضي كان شيخ القبيلة ، أو أعيانها ، أو ما يعرف بالعاقلة، وهم كبار كل عشيرة ، هم أصحاب الحل والعقد في بلادهم وبين أفراد عشائرتهم^(١). وبعد أن ظهرت المؤسسات الإدارية في كل المدن والقرى أصبحت هي المسؤولة في إدارة دفة البلاد ، ولا زال شيوخ القبائل والقبيلة لهم حضور ، لكن ليس بالدرجة التي كانوا عليها في القرن الماضي وما سبقه.

يأتي الموالي والعبيد في الطبقة الثانية بعد عنصر القبائل التي معظمها يمانية ولا تخلوا بعض المناطق من قبائل أو عشائر عدنانية مضرية ، والموالي ، والعبيد كانوا يعملون تحت حماية القبائل ، بل إن الوجهاء ، والشيوخ ، والأعيان كانوا يمتلكون من العبيد (نساءً ورجالاً) أعداداً ليست قليلة ، وذلك حسب مكانة الوجيه أو الشيخ . واستمر نظام العبودية واقتناء العبيد حتى عهد الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود ، ثم ألغى الرق ، ومن ثم صار العبيد أحراراً يعيشون بين القبائل التي كانوا يتبعون لها ، بل صاروا مواطنين سعوديين مثلهم مثل أي فرد آخر في البلاد يتمتعون بالمميزات والخدمات التي يتمتع بها غيرهم^(٢).

والبعض من أولئك العبيد والموالي كانوا من عنصر عربي ، وربما وقعوا في الرق والعبودية لظروف وملابسات خارج إرادتهم ، أما غالبية الموالي أو العبيد فهم

(١) لدى الباحث مئات الوثائق التي تؤيد ما ذهبنا إليه بل أشارت إلى الأدوار الرئيسة التي كانت تقوم بها كل قبيلة مع أفرادها أو مع من جاورها من القبائل والقوى الأخرى .

(٢) وهذا ما كان سائداً ، ولا زال الكثير من أولئك العبيد والموالي يعيشون أحراراً في نواح عديدة من بلاد عسير ، وينتمون إلى العشائر والقبائل التي ينتمي إليها سادقهم في الماضي .

من عناصر غير عربية وغالباً ما جلبوا من القارة الإفريقية ، وكان عمل هذه الطبقة خدمة سادتهم من أبناء القبائل ، أو ممارسة العديد من الحرف والمهن التي يأنف ابن القبيلة أن يمارسها ^(١).

هكذا كان وضع المجتمع العسيري خلال القرن (١٤هـ / ٢٠م) ، بالإضافة إلى تواجد عناصر أخرى عربية وغير عربية ، ولم يكونوا عبيداً ، أو من قبائل منطقة عسير ، وإنما جاء أجدادهم سابقون ، ثم ولد الأبناء في بلاد عسير من آباء عرب وغير عرب (كالشاميين ، أو المصريين ، أو المغاربة ، أو أتراك ، أو هنود ... إلخ) ، ثم صاروا سعوديين عسيريين مثلهم مثل غيرهم في الحقوق والواجبات تجاه دولتهم ومجتمعهم ^(٢).

ومنذ الثمانينيات في القرن الهجري الماضي بدأت الدولة تجلب الكثير من الأجناس البشرية من أجل العمل في مجالات تنموية عديدة . وبدأ يفد إلى منطقة عسير البعض من تلك العناصر البشرية ، مثل : الأردنيين والفلسطينيين والسوريين ، والمصريين ، والمغاربة والسودانيين ، واليمنيين وغيرهم ، وكان معظم العناصر الأولى — ما عدا اليمنيين — يعملون في قطاع التربية والتعليم ^(٣). أما باقي الأعمال الأخرى فلا زالت ضعيفة ومن ثم لا حاجة لأيد عاملة خارجية ، ومع تزايد الأموال في أيدي الناس ، وتطور الجانب الاقتصادي ،

(١) للمزيد عن أهم تلك الصناعات والحرف التقليدية ، وأنفة العربي القديم من العمل في هذه المهن انظر ، جواد علي . الفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام . (بغداد : جامعة بغداد ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م) ، ح ٧ ، ص ٥٠٥ وما بعدها .

(٢) وأكثر هذه العناصر جاءت إلى البلاد في القرن (١٣هـ / ١٩م) وبخاصة بعد مجيء الحكم العثماني إلى المنطقة ، وكذلك أثناء فترة التأسيس للدولة السعودية الثالثة في عهد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود .

(٣) مشاهدات الباحث خلال العقود الأخيرة من القرن (١٤هـ / ٢٠م) والعقود الأولى من القرن (١٥هـ / ٢١م) .

وبخاصة في التسعينيات ثم بداية القرن الحالي بدأ يفد إلى منطقة عسير ،
 وبأعداد كثيرة ^(١). الباكستانيون واليمنيون ، بالإضافة إلى بعض العناصر
 الآسيوية ، كالكوريين والفلبينيين والصينيين ، والأوروبيين وغيرهم الذي يعملون
 في المشاريع التنموية الكبيرة : كشق الطرق ، وبناء المدن العسكرية ،
 والمطارات وغيرها ^(٢). ومنذ العقد الأول في القرن الحالي تزايدت العناصر
 البشرية الوافدة حتى أصبحت بلاد عسير وغيرها من أنحاء المملكة مليئة
 بعشرات الأجناس التي جاءت من أنحاء العالم في القطاعين العام والخاص على حد
 سواء ^(٣)

والمرأة في السابق كانت في الغالب عربية تنتمي إلى عشيرتها وقبيلتها ، وغالبية
 النساء حرائر بصرف النظر عن وضعها الاجتماعي ، كأم أو زوجة ، أو أخت ، أو
 غير ذلك ، فكانت الساعد الأيمن للرجال في ممارسة أعمالهم وكسب أرزاقهم ،
 وغالباً ما تتولى تدبير المنزل وتربية الأبناء ، وما يصب في مصلحة بناء الأسرة . ولم
 يخل المجتمع أيضاً من الرقيق من النساء يخدمن في البيوت وبعد صدور قرار إعتاق
 الرقيق أصبحن نساءً سعوديات يحملن الجنسية السعودية ويتمتعن بجميع الحقوق التي
 يتمتع بها غيرهن ^(٤).

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) وتزايد أعداد الأجانب في هذه المنطقة ، نتج عنه العديد من الجوانب السلبية والإيجابية
 وبخاصة في النواحي التنموية ، والأخلاقية والثقافية والاجتماعية ، ومن ثم فالجامعات
 ومراكز الأبحاث العلمية عليها مسؤولية عظيمة لدراسة كل الظواهر التي نتجت عن هذا
 الامتزاج وعن انفتاح عالم بلاد عسير على غيره من العوالم .

(٤) يوجد لدى الباحث مئات الوثائق التي تصور وضع المرأة في الماضي ، وما كانت تقوم به من
 أعمال ، وكيف تطور وضعها حتى أصبحت اليوم في مراتب علياً تعليمياً ووظيفياً واجتماعياً
 واقتصادياً وثقافياً .

ومنذ أواخر القرن الماضي بدأ يفد إلى منطقة عسير نساء من جنسيات أخرى، قدامن مع أزواجهن الذين قدموا للعمل في هذه البلاد ، بل بعض العسيريين ذهبوا إلى بلدان عربية أو شرقية أو غربية فتزوجوا منها وأحضرُوا زوجاتهم إلى موطن آبائهم وأجدادهم ، وأنجب لهم الأبناء والبنات ^(١). ثم تزايد توافد النساء من أنحاء عديدة من العالم للعمل في القطاعات الصحية ، والتعليمية الحكومية والخاصة ، بل أصبحت البيوت مليئة بالمربيات ، أو العاملات (الخادِمات) اللاتي قدامن من بلدان عديدة من العالم وبخاصة من جنوب شرق آسيا ^(٢).

٢- الأسرة: العشائر العسيرية تتكون من قرى ، والقرى تتكون من خطط ، أو لحام واللحام أو الخطط تتكون من أسر . فالأسرة أو البيت هي أساس كل مجتمع. والأسرة في بلاد عسير قديماً تتكون من الجد الأكبر ، ثم أولاده ، ثم أحفاده بنسائهم وذرائعهم ، فتراهم يعيشون في منزل واحد ، والجد ، أو الأب ، أو أكبر الأسرة هو المستشار الرئيس في الأسرة وإليه ترجع الأمور ، وهو صاحب القرار في كل ما يتعلق بجميع أفراد أسرته الكبيرة ، وجميع أفراد الأسرة متعاونون في تصريف شؤون حياتهم ، وكل واحد منهم له مهنة محددة عليه أن يؤديها ، والجميع متعاونون متحابون مجتمعون في تناول طعامهم ، وفي أفراحهم وأتراحهم ، تسودهم الرحمة ، وكبيرهم يعطف على صغيرهم ، والصغير منهم يحترم كبيرهم . وكل الأسر في كل قرية وهجرة ومركز تراهم على الوضع نفسه . هكذا كان حالهم عندما كان وضعهم الاقتصادي محدوداً

(١) مشاهدات الباحث وتجواله في ربوع عسير خلال الأربعة عقود الماضية .

(٢) لقد نتج عن استفادام مثل هؤلاء الخدم العديد من المشاكل والقضايا الاجتماعية الصعبة وبخاصة في تربية الأبناء ، وعلاقة الأسر مع هذه العمالة ، والذهاب إلى المحاكم والشرط ومكاتب الحقوق المدنية يشاهد الكثير من ذلك والواجب على الباحثين والمراكز العلمية دراسة مثل هذه الجوانب ووضع حلول جذرية لها .

وبسيطاً ، وعندما كان مصدر عيشهم في مزارعهم أو رعيهم أو تجاراتهم أو مهنتهم المحدودة (١) .

وبعد وصول الخير إلى أيدي الناس ، وتحسنت أوضاعهم الاجتماعية والتعليمية والاقتصادية ترى أفراد الأسرة الواحدة تناثروا وأصبحوا شعوباً وقبائل ، فالجد أو الأب الكبير لم يصبح له ذلك الاحترام القديم ، بل ربما يصيبه الوهن والتعب فلا يجد من يقوم على شؤونه ، وأولئك الإخوة والأخوات ، والأعمام والعمات الذين كانوا يعيشون في منزل واحد ، أصبحوا متباعدين ، وربما صار بعضهم متنافرين متقاطعين ، وصار كل واحد يحرص على الانعزال بنفسه عن أهله وذويه ، وهذه ضريبة الغنى وتوافر الخير بين أيدي الناس ، مع أن التقارب والتعاون من باب أولى ، بعد أن صار كل إنسان في وضع أحسن مما كان عليه آباؤه وأجداده من قبل ، والمتأمل في قرى ووهاد ومدن وبواد في بلاد عسير يجد ما أشرنا إليه واضحاً للعيان ، وأحياناً قد تسأل إنساناً عن عمه أو خاله أو شقيقه أو قريبه فيقول لم أره منذ شهر أو شهرين وربما قال أسبوعاً أو أسبوعين وهو يعيش معه في نفس المدينة أو القرية أو البلد الذي يعيش فيه . ومن يقارن أوضاع الأسرة من الناحية الإنسانية والأخلاقية اليوم وما كانت عليه قبل (٤٠ إلى ٥٠ سنة) فإنه يجد البون شاسعاً ، ويلمس ما طراً من انحدار في الحاضر عن ما كان الوضع عليه في السابق (٢) .

(١) عندما تجلس مع كبار السن في المجتمع العسيري يروون لك حال الناس قديماً وكيف تدهور الوضع اليوم في الجانب الأخلاقي والقيمي ، وربما يكون ذلك عائداً إلى وضع الناس المادي فعندما كانوا في فقر وضيق ذات اليد كانوا متعاونين طيبين لبعضهم ، وبعد أن صاروا في أوضاع مادية جيدة ساءت علاقاتهم مع بعضهم ، وهذه حقيقة ملموسة في وقتنا الحاضر ، وتعد في الوقت نفسه مصيبة ، نسأل الله العفو والعافية .

(٢) مشاهدات الباحث وانطباعاته أثناء تجواله في مناطق عسير خلال العقد الماضي .

٣. العمارة وأنواعها : يغلب على المنازل قديماً البساطة والحدودية ، فأهل السراة كانوا أفضل الناس حالاً ، لأن بيوتهم تشيد بالحجارة وأحياناً بالطين ، أو بالحجارة والطين معاً^(١). ومعظم الناس لا تتجاوز بيوتهم غرفتين أو ثلاث ، وهي كافية لسكنهم وما يملكون من مواش أو أدوات لممارسة مهنتهم الاقتصادية . ولا تخلو سراة عسير من أغنياء ، أو شيوخ ، أو أمراء ، أو وجهاء يملكون القصور والحصون الكبيرة التي تتكون من عدة طوابق ، بالإضافة إلى مرافق تلك المنازل أو القصور من الأسوار ، وأحياناً البساتين وربما أبراج لحراسة المنزل وما يحيط به من ممتلكات . أما بيوت العسيريين في النواحي الشرقية أو المنحدرات الغربية ومنطقة قمامة فكانت أدنى في المستوى والجودة ، وذلك لقلّة ما في أيدي الناس من المال ، ثم إن الأجزاء الشرقية كانوا عبارة عن بدو رحل ، فلا يملكون بيوتاً ثابتة ، وإنما خيامهم هي منازلهم التي ينقلونها معهم أثناء ترحالهم لرعي مواشيتهم وحلالهم^(٢).

أما منطقة الأصدار ، أو الأجزاء السهلية التهامية فمنازلتهم يغلب عليها الضيق بل هي محدودة جداً فقد لا تتجاوز غرفة واحدة لجميع أفراد الأسرة ، وأحياناً تكون العشة أو العريش المشيد من أغصان السدر والمظ هي المنزل الذي تمتلكه الأسرة التهامية ، ووجدت بعض الكهوف في الجبال التي كان يسكنها بعض السكان وبخاصة في الأجزاء التهامية والشرقية البدوية العسيرية^(٣).

أما مرافق المنازل في عموم بلاد عسير فكانت محدودة وقليلة إلا في بيوت الأمراء أو شيوخ القبائل ، أما باقي المنازل فلا مرافق لها ، وأحياناً تبنى أسوارها من

(١) انظر بعض أنواع العمارة في عسير. ابن جريس ، عسير (١١٠٠-١٤٠٠هـ) ، ص ٤١-٥٧.

للمؤلف نفسه . بلاد بني شهر وبني عمرو خلال القرنين (١٣-١٤هـ) (الطبعة الثانية) ، ص ٣٥٧ .

(٢) للمزيد انظر : ابن جريس ، عسير (١١٠٠-١٤٠٠هـ) ، ص ٤٢ وما بعدها .

(٣) المرجع نفسه .

الشوك وأغصان الشجر ، ولا يتبعها دورات مياه أو أماكن الغسل ، وإنما الخلاء هو المنتفس لكل إنسان . وربما نشاهد بعض الأسوار الحجرية حول بعض البيوت السروية والتهامية ، والتي يظهر عليها بساطة البناء ، أيضاً قد نلاحظ آثار لبعض الأسوار حول القرى . أما أثاث المنازل فقد كان محدوداً جداً لا يتجاوز بعض الأواني الخشبية والمعدنية وبعض الفرش المصنوعة من الجلد أو الخصف أو السجاد الرخيص^(١) .

وهناك أبنية أخرى كالمساجد والمقابر والأحمية والحصون والقلاع العسكرية والطرق وجميعها في مستوى القرى والمنازل . فالقرى الكبيرة التي يوجد بها وجهاء وأعيان أغنياء فالأبنية حولهم لا بأس بها ، أما الفقراء الذين لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً فمنازلهم ومرافقها بسيطة ورثة . وما نشاهده من حصون وقلاع منتشرة في بلاد عسير ، ويظهر على بعضها القوة والفخامة فذلك يعود إلى القرن (١٣هـ / ١٩م) والنصف الأول من القرن (١٤هـ / ٢٠م) / وما جرى في البلاد من صراعات وحروب دامية جعل أهل البلاد أو الغازين لها يقومون ببناء مثل هذه الحصون والقلاع الكبيرة . وأرجو من الدولة ومن الجامعات والهيئة العليا للسياحة أن تبذل قصارى جهودها لحفظ مثل هذه المعالم التاريخية وترميمها حتى تكون من المعالم الحضارية السياحية الجيدة في بلادنا^(٢) .

والتأمل في العمران القديم وما نشاهده اليوم ، يدرك أن البلاد مرت بعقود عديدة تغير فيه نمط البناء والتشييد ، ففي القديم كان البناء معدودين على

(١) هذا ما شاهده الباحث خلال العقود الأخيرة من القرن (١٤هـ / ٢٠م) .

(٢) من يتجول اليوم في منطقة عسير يجد عشرات القلاع والحصون والمواقع الأثرية التي تعكس تاريخ هذه البلاد ، وكيف كان يعيش الأوائل ، والحفاظ على مثل هذا التراث يدل على الوعي الذي يتصف به سكان البلاد . ونشاهد الهيئة العليا للسياحة بدأت تلتفت إلى هذا الميراث العزيز ، ويجب أن تضاعف جهودها لحفظه وصيانته .

الأصابع في طول وعرض بلاد عسير ، ولم يكن هناك أحد من الوافدين يمارس مهنة البناء . ومع تزايد الخير عند الناس ، وافتتاح فروع لصندوق التنمية العقاري في منطقة عسير، وحصول بعض أفراد المجتمع على قروض من البنوك التجارية ، ثم ظهور شركات ومؤسسات ومقاولون عقاريون ، وتوفر الأيدي العاملة الوافدة من بلدان عربية وغير عربية ، كل هذا ساعد في استبدال المنازل والقرى القديمة ببيوت كبيرة وفارحة ، بل بقرى وأحياء مخططة تخطيط علمي جميل . والذهب الآيب في أنحاء منطقة عسير يلاحظ المدن الكبيرة التي تصل فيه أدوار البناء إلى العشرة وربما إلى العشرين دوراً ، بل يلاحظ الفلل ، والقصور ، والمنازل ، والأسواق ، والطرق ، والاستراحات ، وجميعها مشيدة بأحسن وأجمل مواد البناء ، بل يلاحظ تزويقها ، وأثاثها ، ومرافقها على مستوى جيد من الجودة والإتقان ، ومن ثم يدرك — ويجب أن يعرف — أن هذا التمدن الحضاري حدث في الثلاثة عقود الأخيرة ، ومن عاصر النصف الثاني من القرن الهجري الماضي ، وما جرى في البلاد منذ بداية هذا القرن ، لا يجد وجه مقارنة بين كل ما حدث في الفترتين^(١) . وهذا التحول والتطور وما نتج عنه من سلبيات وإيجابيات جدير بالبحث والدراسة . والنمط العمراني في جنوبي المملكة العربية السعودية بشكل عام ، وفي منطقة عسير بشكل خاص ، جدير بالبحث والدراسة . بل إن الجامعات الأربع الموجودة في هذه الناحية (جامعة الملك خالد ، وجامعات: الباحة، ونجران ، وجازان) عليها مسؤولية تجاه العمران في القديم والحديث . ومن المؤسف أنه لا يوجد في هذه الجامعات الأربع ولو قسم صغير عن عمارة المدن ، أو العمارة والتخطيط ، مع أنه يجب أن يكون في كل جامعة كلية مستقلة تحمل اسم : العمارة والتخطيط ، حتى تدرس ما مرت به هذه

(١) وهذا ما شاهدنا ، وما ذكرت بعض المؤلفات التي صدرت عن منطقة عسير ، وكذلك ما تحويه الكثير من الوثائق التاريخية التي تصور التطور التاريخي الذي مرت ولا زالت تمر به البلاد العسيرية منذ منتصف القرن (١٤هـ / ٢٠هـ) حتى الآن .

البلاد من أنماط عمرانية قديمة ، وما وصلت إليه في يومنا هذا ، وما يجب عليها في المستقبل .

٤ . الألبسة والزينة : تشمل ألبسة الرجال العمامة ، والثوب ، والقميص ، والعباءة ، وتتفاوت من فرد لآخر ، ومن أسرة لأخرى ، ومن ناحية لأخرى ، إلا أنه لم يكن لدى رجال القرن الماضي وفرقة في أنواع اللباس . والعسيريون السروييون أفضل من نواحي الشرق والغرب في المنطقة نفسها ، فالشيوخ والأمراء والأغنياء يوجد لديهم أنواع عديدة من الألبسة السابق ذكرها ، بالإضافة إلى المشالخ ، والعقال ، والسيوف ، والخناجر ، وألبسة القدم ، كالتعال ، والحزمة . وربما وجد عندهم بعض الملابس الداخلية كالسراويل ، والأقمصة الداخلية^(١) . أما عامة الرجال من أهل السراة فلهيهم أثواب وعمائم وغيرها لكنها في الغالب من الأقمشة الرخيصة كالدوت ، أو المبرم^(٢) . وغيرها . وربما بعضهم لديه ألبسة وأحذية مصنوعة من الجلد المحلي . أما الرجال في قمامة فلم يكن لديهم الشيء الكثير ، وأغلب ألبستهم الأقمصة ، والحوكة^(٣) ، وغالباً يكونوا حفاة . أما سكان البوادي فلم يكونوا أحسن حالاً من أهل قمامة ، ووجد عندهم الثياب المذيلة ، وليس كل واحد يمتلكها ، وإنما توجد عند أغنيائهم ، أما عامتهم فليس لديهم إلا التزر اليسير من الألبسة التي تستر عورتهم^(٤) .

كذلك الأطفال والنساء في سراة عسير أفضل من ناحيتي الغرب والشرق ، ولم يكن يوجد عندهم كثير الثياب ، وإنما يوجد عند النساء ثياب رديئة القماش ، وأحياناً تكون نفس أقمشة ثياب الرجال ، ولكن يقمن بصباغتها باللون الأسود ، أو الأحمر ، أو

(١) للمزيد انظر : ابن جريس . عسير (١١٠٠ - ١٤٠٠هـ) ، ص ٦٥ وما بعدها .

(٢) نوع من الأقمشة الرديئة والرخيصة .

(٣) نوع من اللباس يلف على الجزء الأسفل من الجسد .

(٤) ابن جريس . عسير (١١٠٠ - ١٤٠٠هـ) ، ص ٦٦ وما بعدها .

الأزرق ثم يلبسها ، ويغطين رؤوسهن بأقمشة خفيفة سوداء أو صفراء^(١). أما الأطفال فكانوا يلبسون مما يليس آباؤهم وأمهاتهم ، وأحياناً يكونون شبه عراة ، أما وضع نساء قمامة والبوادي فهو أسوأ حالاً مما كان عليه نساء أهل الجبال^(٢).

لم يكن هناك أدوات زينة كثيرة عند الرجال ، وأكثر ما يستخدمونه هو الحزام من الجلد أو القماش ، وغالباً يلبس مع الحزام الخنجر ، وقليل من يقتني السيوف وما شابهها والتي تلبس في المناسبات الاجتماعية كالأعياد ، والزواج ، والختان وغيرها^(٣). وكان هناك بعض الرجال الذين يلبسون الخاتم ، وربما امتلك بعضهم — وهم قلة — ساعة ، أو قلما^(٤).

أما النساء فيلبس بعضهن حزام الفضة ، وأسورة الفضة وربما النحاس ، وبعض نساء الأغنياء يلبسن أسورة وأحزمة من الذهب^(٥) أما الرياحين ، والنباتات العطرية فكانت تستخدم من الجنسين (الرجال والنساء) ، مع أن النساء كن يحرصن على استعمالها بكثرة ، بالإضافة إلى بعض الأطياب التي كان يتم جلبها من عدن وموانئ البحر الأحمر ومكة المكرمة^(٦).

وعامل المال والاقتصاد يأتي في مقدمة عوامل التمدن والحضارة ، ففي القرن الماضي لم يكن عند الناس كثير مال ، فتراهم يعيشون عيشة الكفاف من مأكّل

(١) انظر صور بعض الألبسة القديمة عند النساء والرجال . ابن جريس ، عسير (١١٠٠ — ١٤٠٠هـ).

ص ٦٨ — ٧٥ .

(٢) وهذا ما شاهده الباحث خلال تجواله في نواح عديدة من منطقة عسير خلال الأربعة العقود الماضية.

(٣) للاطلاع على هذه الأدوات يرجى زيارة العديد من المتاحف الأهلية والمحلية في أماكن عديدة من منطقة عسير ، وسوف يلاحظ الكثير من تلك الأدوات .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) يوجد لدى الباحث عشرات الوثائق التي تؤكد على نشاط الصادرات والواردات بين منطقة عسير وموانئ البحر الأحمر . وللمزيد عن استخدام الريحان وأغصان الشجر زينة للرجال والنساء انظر:

ابن جريس . عسير (١١٠٠ — ١٤٠٠هـ) ، ص ٦٨ .

ومشرب وملبس وغيره ، ومع توافر المال في أيدي الناس ، بدأت أوضاعهم تتحول من سيء إلى حسن وهذا ما حدث مع عامل اللباس والزينة . كان الفرد (ذكراً كان أو أنثى) في الماضي لا يملك إلا ثوباً أو ثوبين يستخدمهما لسنوات طوال، وعندما اتسع الرزق على الناس صار الواحد اليوم يملك عشرات ، بل مئات الثياب، والجوارب ، والعمائم ، والملابس الداخلية المختلفة ، ناهيك عن النساء بجميع أعمارهن تجد الواحدة صغيرة أو كبيرة تمتلك الشيء الكثير من الألبسة ، بل قد يغير الرجل أو المرأة اللباس في اليوم الواحد عدة مرات . وقد عاصرنا العقود المتأخرة من القرن الماضي ، ثم امتد بنا العمر - والله الحمد - حتى هذا الوقت فشهدنا ما حدث في الأسواق ، وما حدث للناس ، وما جرى من تطور في الثلاثة أو الأربعة العقود الأخيرة . والذاهب إلى أي سوق ملبوسات في القرية أو المدينة يشاهد آلاف الموديلات ، والألوان ، والأنواع من الألبسة التي تم جلبها من مناطق عديدة في العالم. ناهيك عن أدوات الزينة للرجال والنساء فهي الأخرى أصبحت متوفرة وكثيرة، وصار جميع سكان منطقة عسير (رجالاً ونساءً) يعيشون مثلما يعيش غيرهم في أي جزء من أجزاء العالم ، بل ربما وجد عند البعض منهم ألبسة قد لا تكون عند كبار الأسر في كثير من مدن العالم^(١).

٥. الأظعمة والأشربة :

طعام وشراب العسيريين في الماضي لا يتجاوز ما تنتجه ديارهم ، فأهل قمامة كانوا يقتاتون على الطعام المصنوع من محاصيل الدخن، أو الذرة ، أو السمسم ،

(١) هذا ما شاهدناه ويشاهد كل متجول في أسواق عصرنا الحاضر، ولا يدرك الفرق الكبير بين الماضي والحاضر ، إلا من عاش الفترتين ، ولا يوجد وجه مقارنة على الإطلاق بين ما كان الناس عليه في الماضي وما هم عليه اليوم من تمدن ورفاهية في جميع ضروب الحياة . وللمزيد عن تاريخ الألبسة والزينة في منطقة عسير، انظر: ابن جريس. عسير (١١٠٠-١٤٠٠هـ)، ص ٦٥-٧٥ .

بالإضافة إلى ما يحصلون عليه من ألبان حيواناتهم ولحومها . وهكذا كان الوضع عند سروات عسير ، إلا أن حبوب القمح والشعير والذرة كانت متوفرة في أرض السراة . ومعيشة البدو كانت من الألبان ولحوم مواشيهم بالإضافة إلى التمور التي كانوا يحصلون عليها من بيشة ويصدرونها إلى أسواق السرويين ^(١) .

وبعض العسريين ، وهم قلة ، كانوا يعتمدون على صيد الغزلان أو الطيور ، أو بعض الحيوانات الصالحة للصيد ، فتراهم يقتاتون هم وأهلهم على ما يتم صيده ، وكون منطقة عسير في العصر السعودي الحالي لم يكن لها منفذ على البحر الأحمر ، فلم يكن يستفيد أهلها من صيد أسماك البحر ^(٢) .

لقد عاصرنا حاجة الناس وفاقتهم وجوعهم في الثمانينيات من القرن الماضي ، ولاحظنا عدم وجود المال لدى عامة الناس ، فاللحم مثلاً كان لا يأكله الناس إلا في عيد الأضحى ، مع أن الكثير منهم لديهم مواش وأنعام ، لكنهم كانوا يربونها كي يبيعوا منها وقت الأزمات ، أو الاستفادة منها في إكرام ضيف أو

(١) للمزيد عن النشاط التجاري بين أجزاء من منطقة عسير وما جاورها من النواحي والبلدان انظر: ابن جريس . بلاد بني شهر وبني عمرو خلال القرنين (١٣ - ١٤هـ) ، (الرياض : مطابع الحميضي ، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م ، الطبعة الثانية ، ص ١٥٤ وما بعدها ، المؤلف نفسه ، عسير (١١٠٠ - ١٤٠٠هـ) ، ص ١٦٣ وما بعدها .

(٢) كان ميناء القنفذة ، خلال القرن (١٣هـ / ١٩م) والنصف الأول من القرن (١٤هـ / ٢٠م) ، من أهم المنافذ البحرية الرئيسة لمنطقة عسير ، ولكن بعد ظهور الدولة السعودية الحالية وتوحيد البلاد تحت مسمى المملكة العربية السعودية أصبحت القنفذة تابعة لإمارة مكة ، وصار ساحل البحر الأحمر من جدة إلى جازان يتبع إدارياً إلى كل من مكة المكرمة وجزان ، وفي العقد الثاني من القرن (١٥هـ / ٢١م) جرى بعض التعديلات الإدارية على ساحل البحر ، وصار لمنطقة عسير منفذاً على البحر ، وعلى وجه التحديد من بلدة الصوالحة شمالاً إلى قرية الحريضة جنوباً ، وبمسافة تمتد إلى حوالي متري كيل تقريباً . المصدر: مشاهدات الباحث خلال الأربعة العقود الماضية .

إقامة مناسبة اجتماعية^(١). أما باقي الأطعمة والأشربة فهي كما أسلفنا محدودة ، ويتفاوت الناس من مكان لآخر، لكن ضيق ذات اليد كان لسان الحال الذي يعيشه المجتمع ، وأفضلهم أصحاب المزارع في السروات ، أو في السهول التهامية^(٢). ومنذ التسعينيات ، وبخاصة منذ عهدي الملكين فيصل ، وخالد (١٣٩٥ — ١٤٠٢هـ / ١٩٧٥ — ١٩٨٢م) بدأ دخل الفرد يتحسن ، وصار الكثير من رجال المنطقة يعملون في وظائف حكومية ، وذلك أثر على مستوى معيشتهم ، وبدأت الصادرات الخارجية تصدر إلى أسواق البلاد ، وهكذا استمر الحال حتى عم الرزق ، وكثر الخير ، وفاضت الأطعمة في الأسواق ، وفتحت وتنوعت أماكن الطعام والشراب ، وأصبح الناس يملكون ويعرفون مئات الألوان والأنواع من الموائد المحلية والإقليمية والعالمية^(٣). والذاهب إلى المطاعم أو إلى صالات الأفراح ، أو إلى المكتبات فإنه يجد قوائم وأحياناً مؤلفات كبيرة لأسماء الأطعمة والأشربة الموجودة ، ويستطيع أي إنسان أن يحصل عليها . بل من يذهب إلى مراكز

(١) هذا ما شاهدناه وما رواه لنا الأوتل من الآباء والأجداد ، بل ومن كان يعمل في مهنة بيع وشراء الأنعام في الأسواق والمواسم الرئيسة .

(٢) الأرض الزراعية تتواجد بشكل كبير في بلاد السراة وفي السهول التهامية ، ولكن في الوقت الحاضر هجر الناس مهنة الزراعة ، وحولوا مزارعهم إلى أراض ومخططات سكنية ، والكثير منهم لم يعد يهتم بالمناطق الزراعية ، وانخرطوا في مهن وأعمال أخرى وبخاصة في الوظائف الحكومية التي يجنون منها أرباحاً وعوائد مادية أسهل وأسرع من ممارسة الزراعة .

(٣) من يحضر إلى مناسبة اجتماعية أو وليمة صغيرة أو كبيرة فإنه يشاهد عشرات الألوان والأنواع من الأطعمة والأشربة ، والتي معظمها مستوردة من حيث كمية الطعام أو نوعه فإنه لا يوجد وجه مقارنة الحاضر مع الماضي لانعدام الطعام في الماضي ووفرته في العصر الحاضر إلى درجة البذخ والتبذير في النعيم الذي فاض على عامة الناس وخاصتهم . المصدر : مشاهدات الباحث ومعاصرته لفترات متأخرة من عصور الفقر وما يعيشه الناس في وقتنا الحاضر .

التموينات الغذائية الصغيرة والكبيرة فإنه يُذهل ويعجب مما تحويه هذه الأسواق من أطعمة وأشربة جاء أغلبها من خارج حدود المملكة العربية السعودية^(١).

٦. عادات وتقاليد اجتماعية :

أ. الزواج : طريقة الزواج في السابق والوقت الحاضر تمر بمراحل عديدة مثل : الخطوبة، فالملكة ، ثم يوم أو ليلة الزواج ، ولا بد أن يسبق هذا كله القناعة والرضا من الزوج والزوجة كل منهما بالآخر^(٢). وأفراد أسرة العريس والعروس يكونون على علم ، بل هم اللذين يقومون بإعداد كل الترتيبات منذ مرحلة الخطوبة حتى وقت الزواج ، أو ما يعرف بـ (الدخلة)^(٣).

كان الزواج في السابق بسيطاً في نفقاته ، وكل متزوج يقدم ما في وسعه من الطعام والشراب ، بل الناس كانوا متعاونين فيما بينهم فلا يتأخرون في مساعدة أسرة الزوج فيقدمون لهم كل ما يستطيعون ، كذلك عشيرة أو أفراد قرية العروس هم الآخرون يقدمون كل ما يقدرون ليوم استقبال الضيوف أثناء تزويج بنت عشيرتهم . وهكذا كان الزواج وقت فرح وسرور لأهالي البلاد التي ينتسب لها الزوج والزوجة معاً، لما يتخلل ذلك اليوم من أغان ورقصات وفنون شعبية ، وما يقدم من أطعمة وأشربة في زمن كان الناس يعانون من الجوع والفاقة . وكان الزواج عادة يعقد في بيوت ومجالس أهل العريس والعروس ، وأحياناً يكون في بعض بيوت أهل قرى الزوج والزوجة ، وبخاصة الذين يمتلكون منازل واسعة تتسع لكل من يجتمع في يوم الزواج^(٤). وأحياناً تكون مراسم العروس بسيطة جداً فلا يأت مع الزوج يوم عرسه إلا والده وأفراد قليلون من أقاربه ، فيدخلون عند أهل الزوجة ويتناولون

(١) انظر : ابن جريس ، صفحات من تاريخ عسير ، ج ١ + ٢ / ص ٤٤٩ وما بعدها .

(٢) انظر : ابن جريس . عسير (١١٠٠ - ١٤٠٠هـ) ، ص ٧٨ وما بعدها .

(٣) وهي الليلة الأولى من دخول الرجل على زوجته .

(٤) ابن جريس . عسير (١١٠٠ - ١٤٠٠هـ) ، ص ٨١ .

وجبة بسيطة ثم يأخذون الزوجة عائدين إلى موطنهم وغالباً كانوا يذهبون ثم يعودون مع الزوجة مشياً على الأقدام ، وأحياناً تحمل الزوجة على دابة كالجمال أو البعير حتى تدخل بيت زوجها ^(١) . أما الأطعمة والألبسة التي يأكلها أو يرتديها الرجال والنساء يوم الزواج فكانت بسيطة جداً ومحدودة في نوعها وجودتها فالأطعمة مثل : العصيد ، أو خبز البر ، أو الشعير ، واللحوم مع الخبز ومؤخراً في العقود الأخيرة من القرن (١٤هـ / ٢٠م) استخدم الأرز مع اللحوم . أما الألبسة فالثياب والعمائم للرجال ، وأحياناً يلبسون السلاح يوم الزواج مثل : السيوف والخناجر ، ويحملون معهم البنادق المختلفة ، أما النساء فيلبسن الثياب الملونة أو المصبوغة ، وبعض الحلبي البسيطة من النحاس ، والفضة ، ثم الذهب مؤخراً ^(٢) .

وعندما ازداد المال في أيدي الناس ، وسافر الكثير منهم إلى خارج قراهم وأوطانهم ، واختلطوا بأقوام وأناس آخرين ، وشاهدوا الكثير من الأعراف والعادات الأخرى صاروا يتوسعون قليلاً قليلاً في نفقات زيجاتهم ، وفي حفلاتهم ، وفي هدايا ومهور الزواج . ففي الماضي كانت تكاليف الزواج أحياناً لا تتجاوز العشرة أو العشرين ريالاً ، وربما ارتفعت عند بعض الناس إلى المئه ، وأحياناً إلى الخمس مئة أو إلى الألف وألفي ريال . أما خلال العقود الثلاثة الأخيرة فلقد ارتفعت تكاليف الزواج بشكل خيالي حتى أصبحنا نسمع عن بعض الزيجات التي تكلفت المتين والثلاث مئة ألف ريال وربما وصلت إلى الخمس مئة وقد سمعنا ببعض الحالات التي تجاوزت المليون ريال ، وقد حضرت بعض الزيجات في العقدين الأخيرين لبعض الأفراد من منطقة عسير ، والتي أقيمت في بعض المدن الكبرى من المملكة ، مثل : أبها ، وحميس مشيط ، وجدة ، والرياض ،

(١) المصدر نفسه .

(٢) انظر : ابن جريس . عسير (١١٠٠ - ١٤٠٠هـ) ، ص ٧٨ وما بعدها .

والدمام ، وغيرها فكانت مكلفة جداً . من حيث الاستراحات أو الفنادق التي عقدت فيها تلك المناسبات ، والولائم الكبيرة المترفة التي يعجز الفرد في وصف ما قدم فيها من الأطعمة ، إلى جانب السيارات المستخدمة يوم الزواج ، والهدايا التي قدمها الزوج وأقاربه إلى أهل الزوجة وأقاربها ، بالإضافة إلى الألبسة والمجوهرات ، وكذلك المشاركين في الرقصات والفنون الشعبية التي صاحبت يوم أو ليلة الزواج ، إلى غير ذلك من تذاكر سفر ونفقات للزوج والزوجة بعد ليلة الزواج^(١).

ليس كل أهالي منطقة عسير ينفقون ما ذكرنا أنفاً في حفلات زيجاتهم ، لكن أبسط الزيجات العادية في عموم بلاد عسير لا تقل تكاليف الزواج الواحد عن خمسين ألف ريال . نعم نسمع حالات شاذة وقليلة جداً لا تتجاوز تكاليفها خمسة آلاف ريال^(٢) . بل ظهرت جمعيات تعاونية خيرية ، وبعض الأغنياء والمقتدرين مادياً الذين ينفقون على بعض الزيجات الجماعية بل انتشر في الأعوام الأخيرة ما يعرف بـ (الزواج الجماعي) ، التي تبنته بعض العشائر ، أو القرى في المنطقة ومن ثم فيتزوج الثلاثون والأربعون وربما وصل العدد إلى المئة شاب وشابة في حفل واحد ، وفي مكان واحد ، وتقدم لهم المساعدات من أهل الخير ، وبالتالي لا ينفق

(١) مشاهدات الباحث خلال العقود الثلاثة الماضية .

(٢) كما عثرنا على العديد من الوثائق والاتفاقيات الاجتماعية عند بعض العشائر والقبائل العسيرية التي تقنن المهور ونفقات الزواج بين أفرادها ، فالبعض من تلك العشائر تؤكد وتلتزم أفرادها أن لا تتجاوز نفقات الزواج الواحد آلاف الريالات ، وأحياناً كثيرة لا تزيد عن العشرة أو العشرين ألف ريال ، ولا زال الكثير من عشائر الجنوب تلتزم بما اتفقت عليه في وثائقها واتفاقياتها العرفية الاجتماعية التي تحدد مهور الزواج بين رجالها ونسائها . للمزيد انظر: ابن جريس . عسير (١١٠٠هـ - ١٤٠٠هـ) ، ص ٩٠ ، للمؤلف نفسه . بلاد بني شهر وبني عمرو ، ط ٢ ، ص ١٣٩ وما بعدها ، للمؤلف نفسه . صفحات من تاريخ عسير ، ج ٢+١ ، ص ١٨٧ - ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٣٢ .

الزوج شيئاً يذكر ، ومثل هذه العادة جيدة وتجد تأييداً من الدولة ومن الأعيان والوجهاء في البلاد، إلا أنها لا زالت محدودة جداً ، وأرجو أن يزداد العمل بها، وأن يقوم عليها من يقننها ويسيرها في المسار السليم الذي يتوافق مع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ^(١).

ونظام الزواج في الماضي كان بسيطاً ، وارتباط الرجل بزوجة هو الآخر بسيط فالناس نساءً ورجالاً كانوا يخرجون في حقولهم ومراعيهم سوياً ، فلا حجاب يستر وجه المرأة ، وبالتالي يستطيع الرجل أن يرى الزوجة التي يرغب بالزواج منها على الطبيعة، وربما كانت من قريته أو عشيرته فلا يجد الرجل صعوبة في الحديث مع أي امرأة ، وذلك الأمر عادي وطبيعي ، ومن ثم فلا نجد فتاة يصل عمرها العشرين عاماً إلا وصارت متزوجة ، ونادراً جداً أن نجد فتاة تجاوزت هذا السن أو امرأة مطلقة لم تتزوج فوراً بعد طلاقها ، وبعد أن ترك الناس العمل في حقولهم ومراعيهم ومهنهم الأخرى ، وذهب أغلبهم إلى الوظائف الحكومية ، وبقيت النساء في المنازل فلا يخرجن أمام الناس ، وإن خرجن احتجبن فلا يرون منهن شيئاً ، ومن ثم ازداد عددن في البيوت ، وكثير من النساء وصلت أعمارهن إلى الثلاثين والأربعين سنة ولم يتزوجن ، وسبب ذلك عدم معرفة الرجال عنهن شيئاً ، بالإضافة إلى ارتفاع المهور وتكاليف الزواج ، كل هذا ضاعف العنوسة بين الرجال والنساء . وهذا موضع خطير يهدد أمن المجتمع ، ويجب على المراكز الاجتماعية ، والخيرية ، والبحثية ، والأجهزة المعنية بمثل هذه الأمور إيجاد الحلول التي تساعد الشباب والشابات على الزواج ، وتسهيل ما يقابلهم من عقبات، وإذا لم يسارعوا في إيجاد حلول لمثل هذه الجوانب فالأمر سوف يزداد

(١) لقد حضر الباحث الكثير من هذه الزيجات الجماعية ، والتي من فوائدها مساعدة الشباب والشابات على تحصيل أنفسهم ، وتسهيل أمورهم في استكمال نصف دينهم ، أرجو أن نرى هذه الظاهرة تنتشر أكثر ويعم خيرها كل أرجاء الوطن .

خطورة ، وهذا قد يساعد على انتشار جوانب أخلاقية خطيرة تهدد بناء المجتمع وتمدنه الحضاري^(١).

مراسيم الزواج القديم كانت محدودة على أفراد القرى أو العشيرة التي يتم الزواج فيها ، فلا عمالة أجنبية تقوم على خدمة الناس يوم الزواج ، وإنما رجال ونساء القرية أو العشيرة الذين يقومون بكل الأعمال منذ بداية الزواج إلى نهايته . بل هم أنفسهم الذين يمارسون الرقصات والفنون والفولكلور الشعبي الذي يتخلل يوم الزواج^(٢) . ومع مرور الزمن وبخاصة منذ بداية هذا القرن ، صار الأعداد للزيجات يقوم على أكتاف عمال يستأجرون من خارج إطار العشيرة أو القرية ، وغالبيتهم من العمال الوافدين كاليمينيين أو السودانيين أو المصريين ، أو الباكستانيين ، أو الهنود أو غيرهم ، وغالباً يكونون تابعين لمؤسسات أو شركات تجارية ، فهم الذين يرتبون مكان الزواج ، وعادة يكون مستأجراً ، كصالات الأعراس ، أو الفنادق ، وقبل ذلك كانت تقام مخيمات ، ومنها ما هو للنساء ، وأخرى للرجال ، بالإضافة إلى إعداد الولائم ، والقيام على خدمة الناس أثناء تقديم الشاي و القهوة . وصالات الأعراس انتشرت بشكل كبير في منطقة عسير ، حتى أصبحت لا تخلو محافظة ، أو مركز ، أو تجمعات قرى من وجود مثل هذه الصالات ، لأن غالبية الناس أصبحوا يفضلونها على المنازل ، وأسعارها تختلف من ناحية لأخرى ، لكنها تتراوح من ألفين وخمسة آلاف إلى أربعين وخمسين ألفاً للمناسبة الواحدة ، بل تختلف الأسعار حسب نوع المناسبة ، ومناسبة

(١) هذا ما يراه الباحث وتدرجه الجهات الأمنية والدعوية والتربوية مثل : الجامعات ، وهيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة والإرشاد وغيرها .

(٢) للمزيد عن الصور التي تعكس بعض الرقصات والفنون الشعبية في زيجات منطقة عسير . انظر:

ابن جريس . عسير (١١٠٠ - ١٤٠٠هـ) ، ص ١١٤ وما بعدها .

الزواج تأتي في أعلى درجة الأسعار ، بعكس مناسبات أخرى يكون الحضور فيها قليلاً محدوداً^(١).

أما الفنون الشعبية التي تقدم في الزيجات قديماً وحديثاً ، فالعرضة في مقدمة تلك الفنون ، ثم فنون أخرى مثل : الخطوة ، واللعب ، والمسحابي وفنون عديدة أخرى امتازت بها منطقة عسير ، وتختلف من ناحية لأخرى^(٢). أما النساء فقد دخل عليهن العديد من الفنون والعادات الدخيلة على المجتمع العسيري ، بل ربما على المجتمع السعودي . فالعروس مثلاً تلبس بعض الألبسة وتعلق بعض الورود التي لم تكن تعرف من قبل ، وفتتان العروس ، وأحياناً يعرف بـ (الشرعة) يكلف أحياناً آلاف الريالات ولا يستخدم إلا مرة واحدة^(٣). أيضاً يتم إحضار مصورة ، وقبل وقت من الزمن كان الذي يقوم بالتصوير رجل ، ثم استبدل في الآونة الأخيرة بامرأة فتقوم بتصوير الزوج مع زوجته ، وأحياناً قبل زمن ليس ببعيد تتصور الزوجة وزوجها مع أقاربه وأقاربها ، ثم استبعدت هذه العادة إلا عند قلة قليلة من الناس ، وبخاصة عند بعض من عاش في المدن الكبيرة ، ويرى وينادي بالانفتاح بين الجنسين (الذكور والإناث) ، أما الرقص بين النساء يوم الزواج فالذي يقوم به بعض النساء اللاتي يحضرن الزواج ، وغالباً يكن من قريبات الزوج والزوجة^(٤).

(١) هذا ما عاصره وشاهده الباحث خلال العقود الثلاثة الماضية .

(٢) الفنون الشعبية في منطقة عسير ، بل وفي جنوب البلاد السعودية جديرة بالبحث والدراسة فحذا أن نرى جامعاتنا المحلية والباحثين يولون هذا الباب رعاية واهتماماً حتى نرى بعض الدراسات العلمية الأكاديمية الجادة .

(٣) هذه عادة دخيلة على المجتمع العسيري ، وربما وصلت إلى سكان الجزيرة العربية وبخاصة المملكة العربية السعودية من مصر وبلاد الشام . وبلاد الحجاز (مكة المكرمة والمدينة المنورة) أول من استقبل مثل هذه العادة، ثم انتشر استخدامها حتى وصلت إلى كل مدينة وقرية وريف في المملكة.

(٤) هذا ما سمعه الباحث من كثير من القريبات والمخارم .

أما الذي يمارس ضرب الطبول والغناء للراقصات وكذلك الراقصين من الرجال فإنهم أناس مستأجرون متخصصون في هذا الفن ، وغالباً تكون أسعارهم عالية ، فرمما تصل أجرة الفرقة الواحدة ليلة الزواج إلى العشرة والعشرين ألف ريال، وقد سمعنا من دفع إلى الثلاثين والأربعين والخمسين ألف ريال وبخاصة للفرقة النسائية التي تحيي رقصات النساء . أما الشعراء الشعبيون والذين يضربون الطبل الرجال فهم الآخرون ينالون أجوراً جيدة تقدر بالآلاف^(١).

ب. الختان: الختان ظاهرة شرعية عند المسلمين ، مارسها العسيريون منذ القدم ، إلا أنه كان يواكبها بعض العادات الوحشية ، ففي الماضي كان الذكر يترك حتى يصل عمره إلى العشر أو العشرين سنة ، ثم يجمع مع أقرانه في القرية أو القرى المجاورة ، ويخت في حفل جماهيري يتخلله الكثير من الرقصات والأشعار الشعبية . والرجل الذي يقوم بختان الشباب ، قد لا يقتصر على عمل الختان الشرعي ، وإنما يسلم أحياناً جلد القضيب والعانة معاً . وبعد ذلك يطلب من المختون أن لا يتأفف أو يصدر منه أي تدمر أو بكاء، وبعد الانتهاء من ختنه يقوم المختون ببعض الحركات الاستعراضية وعورته عارية فيقول بعض القصائد والأشعار التي يذكر فيها أهله ونسبه وأخواله ، وكل ذلك من أجل أن يثبت للمشاهدين من نساء ورجال قريته أو عشيرته أنه شجاع ابن شجاع ، وأن أسرته أهل الشجاعة والبطولة . ومن يصدر منه جبن أو خوف أو بكاء تبقى مسبة له طوال حياته ، وإذا أراد أن يتزوج من إحدى بنات القرية فلا يزوجه ، ويصفونه بالجبان الضعيف . وينتج عن هذه الممارسات الكثير من

(١) هذا ما عرفه الباحث وسمع عنه ممن استأجر مثل هؤلاء الشعراء ، بل جلس الباحث مع بعض الشعراء الشعبيين المشهورين في منطقة عسير ، وعرف بعض الشيء عن الأجور التي يتقاضونها في بعض المناسبات

الضحايا الذين يتزفون ويموتون بسبب ما لاقوا من ممارسات خاطئة ورثوها من مجتمعاتهم^(١).

ويصاحب مثل هذه المناسبة ممارسة بعض الفنون الشعبية ، وإعداد الولائم المصنوعة من قوت أهل البلاد ، وتستمر مراسم الختان عدة أيام ، تردد فيها الأشعار من شعراء ورجال العشيرة أو القرية ، وينال أهالي المختونين الكثير من التعب والعناء لما يقومون به من تقديم الأطعمة والأشربة أثناء إقامة هذه المناسبة^(٢).

ومع انتشار الوعي والتعليم بين الناس ، ثم إنشاء المستشفيات والمراكز الصحية صار الناس منذ خمسين سنة يتركون تلك العادات التي ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ويذهبون بأولادهم إلى من يقوم بختانهم ختان السنة ، وأحياناً في الأيام الأولى من عمر المولود ، واختفت تلك الطريقة القاسية على النفس والجسد معاً^(٣).

ج . الماتم: كان يصاحب الماتم إرهاب أهل الميت ، فعندما يفارق الميت الحياة ويذهب به إلى المقبرة ، يخرج فريق آخر من قريته أو عشيرته إلى حالاه ومواشيه فيبحثون عن أجودها كي يذبحوها ويأكلوها ثم يمكثون عدة أيام في منزل الميت يقتاتون من مواشيه ومعاش أهله ، وذلك تحت مظلة أيام العزاء ، ولا تنتهي هذه الأيام ، التي ربما تكون ثلاثة أيام وقد تستمر إلى أكثر من ذلك ، إلا وأصبح أهل الميت فقراء لا يجدون ما يقتاتون^(٤). وهذه عادة لا توافق الشرع وكانت منتشرة في جميع منطقة عسير . وبقيت هذه العادة إلى عهد قريب ، ثم بدأت تخف قليلاً قليلاً

(١) للمزيد انظر فؤاد حمزة . في بلاد عسير (الرياض : مكتبة النصر الحديثة ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م)

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه . حدثنا بعض كبار السن الذين شاهدوا طريقة الختان القديم ، وبعضهم جرب بروتوكولات هذه العادة ، ويبدو للسامع لأقوالهم أنها من باب الخرافات أو ضرب الأساطير لوحشيتها وصعوبة تحملها . وهذه العادة بقيت إلى وقت قريب . تمارس بين بعض عشائر قحطان وعسير النهامية .

(٤) هذه العادة بقيت تمارس عند بعض العسريين إلى العقود الأولى من القرن (١٥هـ / ٢٠م) .

مشاهدات الباحث في أجزاء عديدة من بلاد عسير .

حتى اقتصر أغلب الناس على عقد ثلاثة أيام فقط ويقوم أقارب الميت ومن له علاقة به بإرسال الولائم والأطعمة إلى أهل الميت ، وإلى الذين يقومون في العزاء . وغالباً ما تكون أيام العزاء الثلاثة في منزل الميت أو منزل أحد أقاربه ، وربما نصبت الخيام الخاصة بهذا الشأن أو وضعت في صالة مناسبات وبخاصة إذا كانت قريبة من بيت المتوفى^(١).

د . التكافل والتعاون الاجتماعي : كان بين الناس في القديم من التعاون والتكافل ما يعجز عنه الوصف ، صحيح لم يكونوا في سعة من العيش ، ولكنهم كانوا على مستوى كبير من التقارب والتآلف والتعاون . فالمزارعون ، أو الرعاة ، أو التجار ، أو الأسر في القرية أو البادية أو الهجرة أو حتى المدينة كانوا جميعاً يسألون عن بعضهم البعض فيذهبون جميعاً لزيارة المريض ، أو إيغاثه الملهوف ، أو إعانة المحتاج . وفي حفلاتهم وأعيادهم ومناسباتهم وزيجاتهم يتعاونون جميعاً في إتمام كل ما جاؤوا من أجله ، وكأنهم جميعاً أصحاب الحفل أو المناسبة التي اجتمعوا من أجلها . كان الرجال والنساء في القرية الواحدة يعيشون مع بعضهم البعض وكأنهم أسرة واحدة ، فتراهم في النهار يذهبون جميعاً لممارسة مهنتهم التي يقتاتون منها ، وفي الليل يعودون إلى قراهم فيجالسون بعضهم البعض ويتسامرون ويقضون حياتهم في دعة وراحة تامتين^(٢) . وعند الجلوس مع من عاصر تلك الأيام الخوالي ولازال بذاكرة جيدة تجده يتحسر على ذلك الزمن ، وما كان فيه من طيب النفس ولطف المعشر وحسن الخلق ، مع ضيق ذات اليد وضعف دخل الفرد . وتسأل عن التكافل والتعاون بين الناس فتجدهم في القرية أو البادية أو الهجرة الواحدة يتعاونون جميعاً في مساعدة من يريد

(١) مشاهدات الباحث خلال العقود الماضية المتأخرة .

(٢) عاصر الباحث البعض من تلك المجالس الاجتماعية التي يتسامر فيها سكان الحي أو القرية ، ويتداولون فيها القصص والأشعار والأحاديث . إنها أيام جميلة وبسيطة في كل ما يجري فيها من وسائل مادية ومعنوية .

تشديد دار له ولأسرته، أو حفر بئر ، أو حرث مزرعة أو حصدها ، بل تجدهم يتبادلون لوازم حياتهم ويستعير بعضهم من بعض كل ما يحتاج لإنجاز عمل معين يعود عليه وعلى أهل بيته بالخير والنفع ، وتراهم يأتمنون بعضهم على بعض في أمواتهم وأهليهم وما ملكوا ، أياماً جميلة كلها حب ورحمة وتعاون .

ومع تقدم الناس في المدنية ، وانتشار التعليم ، وتوسع الناس في الأرزاق وفي الدور والعقار ، بدأت تلك العادات الجميلة تتوارى تدريجياً ، وصار التباعد في بناء المنازل يتزايد وتسارعت عجلة التحضر في الملبس ، والمطعم ، والمركب ، وبدأ الفرد يسعى إلى الاستقلال بنفسه حتى عن أهله وذويه ، ولم يأت العقد الثاني من القرن الهجري الحالي ، إلا وجميع مظاهر التعاون والتقارب والتآزر التي كانت موجودة بين الناس قديماً تلاشت ، وأصبحنا لا نسمع عنها إلا من باب القصص والروايات .

والتأمل لوضع الناس اليوم يجدهم أصبحوا في سعة خير ورزق وفير ، لكنهم في ضيق وكرب ، فالقطيعة حلت بين كثير من الأقارب ، والشكاوى والخصومات لا تجدها إلا بين أفراد القرية أو الأسرة الواحدة ، ولم يعد هناك نواد وتراحم بين الفخذ أو البلدة الواحدة كما كان في السابق ، بل الأعياد والمناسبات الاجتماعية أصبحت بدون طعم أو متعة ، وإذا سألت الفرد في الأسرة الواحدة (ذكراً أو أنثى) عن حالته ، يكون رده عليك أنا غير مرتاح ، أنا تعبان وهكذا ، مع أنه لا يعيش في أي ضائقة مالية ، أو نقص في مأكلا ، ومشرب ، أو ملبس ، وإنما زادت هموم الناس وأمراضهم النفسية والجسدية ^(١) . وهذا ربما عقوبة من الله عز وجل ، لأن الناس جميعاً قصرُوا في حقوق كثيرة ، كعلاقة الجار بجاره ، أو صلة القريب بقريبه ، وكثرة القيل والقال ، واغتيال الناس ، وانتشرت الكراهية والبغضاء بين الأرحام والأقارب وأبناء البلدة الواحدة ، وظهرت معاص جديدة لم نألفها من قبل وأصبحت ضمن أنشطة وممارسات

(١) هذا ما شاهده الباحث ولازنا نشاهد في عصرنا ما يجري بين الناس من تفرق واختلاف لأنفهم الأمور ، ولو بحث عن أسباب ذلك لوجدته قائماً على الطمع والصراع على حطام الدين .

الناس اليومية ، وكثيراً منها له علاقة باللباس ، والطعام والشراب ، وعادات وتقاليدهم وأعراف أخرى . أيضاً الثفات أغلب الناس إلى جمع المال بأي طريقة أو وسيلة دون تأمل أو تثبت من مصادر تلك الأموال ، والبعد عن كثير من الفضائل ، والانخراط في كثير من ملذات الدنيا ، كل هذه الأمور مجتمعة وغيرها جرت إنسان اليوم إلى الكثير من الكروب والأسى وعدم وجود الراحة النفسية التي كان يعيشها إنسان الماضي .

هـ - نشاطات اجتماعية أخرى : كانت النشاطات في الماضي محدودة ، فالناس يمارسون حياتهم اليومية في كسب أرزاقهم ، وهذه أهم نشاطاتهم منذ الصباح الباكر حتى صلاة المغرب . وعندما يحل الليل تجتمع أفراد الأسرة الواحدة لتناول وجبة العشاء ، ثم يقضون بعض الوقت في الحديث والسمر ، وأحياناً تجتمع أسر الحي أو الفخذ أو القرية فيمارسون بعض الأنشطة الرياضية البدائية ، أو بعض الفنون والرقصات الشعبية^(١) . وأحياناً يلتقي بعض كبار السن من الرجال والنساء لتبادل الأخبار أو الروايات أو القصص التي سمعوها أو يعرفونها . وغالباً لا يتأخرون في السهر وإنما يذهبون إلى النوم بعد صلاة العشاء مباشرة ، حتى يستيقظوا في الصباح الباكر للذهاب إلى أعمالهم كل حسب عمله أو مهنته التي يقوم بها .

هكذا كانت طبيعة الناس ونشاطاتهم في الماضي ، وتدرجياً صاروا يتحولون في مناشطهم ، فتركوا مهنتهم القديمة من رعي ، وزراعة ، ومهن يومية أخرى ، والتحقوا بالوظائف الحكومية والأعمال التجارية التي تدر عليهم دخلاً أكبر ، ومن ثم تغيرت نشاطاتهم ، فأصبح الرجال ينامون في النهار بعد رجوعهم من وظائفهم ، ويسهرون في الليل وينامون في النهار أوقات إجازاتهم ، أما الشباب

(١) مثل هذه النشاطات تمارس بشكل أكبر أثناء إقامة المناسبات والاحتفالات الاجتماعية . وتاريخ الفنون الشعبية والأنشطة الرياضية القديمة جديرة بالبحث والدراسة . حبذا أن نرى بعض طلابنا وطالباتنا في الدراسات العليا أن يلتفتوا لمثل هذه الموضوعات حتى نتعرف على بعض الجوانب الحضارية التراثية التي كان يعيشها الآباء والأجداد .

(ذكوراً وإناثاً) فيقضون أغلب الليل في السهر ، ثم يذهبون إلى مدارسهم ، وعند عودتهم ينام البعض منهم ، أما النساء فقد يقضين جزءاً من النهار في مشاهدة التلفاز (الرائي) ، وربما ذهب بعضهن إلى الأسواق في بعض أوقات النهار والجزء الأول من الليل^(١).

وقد ظهر الكثير من المناشط الرياضية ، وبعض الأندية الرياضية وأيضاً الأدبية في نواحٍ عديدة من بلاد عسير ، وهذه الأماكن استقطبت الكثير من الشباب الذكور ، ونسمع حالياً ظهور أندية (رياضية وأدبية) خاصة بالنساء. أما الفنون الشعبية فلا زالت الفنون القديمة التي عرفها القدماء ، لكنها لا تمارس إلا في مناسبات الزواج ، وأحياناً الأعياد وأماكن ممارستها غالباً في صالات المناسبات التي صارت متواجدة في أنحاء المنطقة ، والمفضلة عند أغلب الناس لإقامة مناسباتهم وحفلاتهم فيها .

ومنذ سنوات ظهر في العالم بل في المجتمع السعودي بشكل عام وعسير بشكل خاص أمور عديدة ، ودخيلة ، وأصبحت تحصد النصيب الأكبر من نشاطات الناس ، وهذه الجوانب لها محاسن ومساوئ نذكرها على النحو التالي :

١- التلفاز (الرائي) أو ما يسمى بـ (الذش) : قبل عقدين لم يكن أهل عسير يعرفون إلا القناة الأولى للتلفزيون السعودي ، وكان قبل ذلك أبيض وأسود ، ثم جاء التلفاز الملون . وبعض الناس كانوا غير راضين عما يعرض فيه من صور ومسلسلات ، وأغلبها مصرية . ثم جاء موضع جهاز استقبال جديد عرف باسم

(١) من يرتاد الأسواق في يومنا الحالي يجدها مليئة بكل الأجناس ، وجميع الفئات العمرية . وأصبح السوق اليوم متنفساً لكثير من الرجال والنساء والشباب . وكون السوق من المواضيع الهامة كقضاء الناس حوائجهم وجلب ما يحتاجونه في حياتهم ، إلا أنه يوجد به من المعاصي ما يصعب حصرها في هذا المقام . ودراسة الأسواق من كل الجوانب من المواضيع الهامة التي يجب أن نتال بعض الرعاية من الباحثين وأصحاب التخصص .

(الدش) وقامت الدنيا وقعدت عند كثير من الناس وبخاصة الدعاة والخطباء وأصحاب الوعظ والإرشاد ، وانشق المجتمع فهناك مؤيد ومعارض وصار بعض الأفراد يضعون هذه الأجهزة على منازلهم وآخرون ينظرون لمن يستخدمها نظرة احتقار وازدراء^(١). وهكذا استمر الوضع حتى أصبح معظم أفراد المجتمع السعودي عامة ، والعسيري خاصة يمتلكون في دورهم العديد من أجهزة التلفاز المتصلة بأطباق الاستقبال (الدش) وأصبحت مشاهدة التلفاز تأخذ النصيب الأوفر من أوقات الناس وبخاصة النساء (كباراً وصغاراً) بالإضافة إلى شريحة الشباب وبعض الكبار من الرجال^(٢). والمشاهد المتأمل للتلفاز وما يوجد فيه من قنوات تصل إلى المئات يستشعر الخطر الذي يحمله لأبناء مجتمعنا . والمؤسف أن كثيراً من القنوات الفاضحة والتي تدعو إلى العري والسفور والريذيلة والمجون هي لرجال أعمال سعوديين ، ويجب على مثل هؤلاء أن يتقوا الله في أنفسهم وأبناء المسلمين في كل مكان ، لأنهم ينشرون في قنواتهم ما يهيج الغرائز عند الشباب والشابات ، والنساء والرجال ، بل يثون الكثير من الصور والقصص والأخبار والمسلسلات المشبعة بالفسوق والفجور وتعارض مع منهج كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

(١) لقد عاصر الباحث كثيراً من الجدل والصراعات الكلامية بين مؤيد ومعارضٍ للدش ، بل وصلت تلك الصدامات إلى التجريح بالقول الفاحش الخارج عن حدود الأدب . ولكن تلك الحدة بين الطرفين لم تستمر طويلاً وإنما هي فقط عدة أعوام حتى ألف الناس هذا الدش وصاروا جميعاً يتفننون في اقتناء أجود أنواع الدشوش وأفضلها في جلب أكبر قدر ممكن من القنوات الفضائية ، والتي غالبها سيئة فيما تقدم وتعرض للمشاهد .

(٢) شاهدنا ولازلنا نشاهد الكثير من الرجال والشباب من يحرصون على توفير استراحات أو منتجعات أو أماكن خاصة للتجمع بها وقضاء أوقات طويلة بها لمشاهدة قنوات التلفاز المختلفة ، وممارسة بعض النشاطات الاجتماعية والثقافية الأخرى . وقد زار الباحث أماكن عديدة من هذا النوع ، ولمس أن كثيراً ممن يرتادون مثل هذه المواقع من ذوي الأسر ومن لديهم زوجات وأبناء وبنات ، ومن ثم تجدهم مقصرين في متابعة أحوال أسرهم وبيوتهم ، لطول ما يقضون من أوقات في هذه الأماكن .

أما أبناؤنا وأهلنا في عسير فقد ناهم ما نال غيرهم ، وهذه الوسيلة الإعلامية بما ييثر فيها ومن خلالها تجدها ذات تأثير ملحوظ على طلابنا وطالباتنا في مدارسنا وجامعاتنا ، بل على الكثير من نساتنا ورجالنا ، وأنها فعلاً خطيرة ، ولا ندرى ما هي نتائجها في المستقبل القريب . والمسؤولية معقودة على رب كل أسرة ، وكل مربٍ ومربية في المدرسة أو الجامعة ، ووسائل إعلامنا الشريفة وغيرها أن توجد السبل الجيدة لتوعية الناس من مخاطر هذا البث التلفزيوني المنحرف . نعم إنه من الصعب أن نحجب كل ما ييثر لكن يستطيع كل في مكانه أن يقدم شيئاً لنفسه وأهله ومن يستطيع أن يؤثر عليهم . وما يعرف بالألعاب (البلاي ستيشن) والتي تستخدم على جهاز التلفاز ، وبعض الألعاب الأخرى على جهاز الكمبيوتر، أو على جهاز الجوال (النقال) كل هذه الأجهزة وهذه الألعاب يوجد فيها من الجوانب السلبية الشيء الكثير، التي تقدم ولا تبني، وتؤثر على قيم وأخلاق ومبادئ من يمارسها ويطلع على ما يقود إلى الفسوق والرذيلة فيها .

٢- الإنترنت : وصل إلينا مؤخراً وسيلة جديدة من وسائل الاتصالات العالمية، هي (الإنترنت). وهذه الوسيلة مثلها مثل التلفاز ، والجوال وغيرها سلاح ذو حدين بهما الخير والشر ، والفرد يستطيع أن يأخذ ما يريد . وللأسف نجد كثيراً من الشباب (ذكوراً وإناثاً) وبعض الرجال والنساء يضيعون الساعات الطويلة من أعمارهم في البحث في هذه الوسيلة عما يضر ولا ينفع ، وهذا في اعتقادي مسؤولية الفرد نفسه، وأرباب الأسر أيضاً لا نغفيم من متابعة أولادهم وبناتهم وحثهم على سلوك الطريق التي تفيدهم ولا تضرهم .

٣- المنتديات والملتقيات العلمية والاجتماعية : كانت في السابق تعقد اللقاءات والاجتماعات بين أفراد الحي أو القرية الواحدة من أجل التشاور في أمر عام يخص شؤون حياتهم الداخلية أو الخارجية ، وقد يلتقون لقضاء أوقات سمر ومرح بريء بعيداً عن كل ما يחדش الدين أو الكرامة.

ومع تواجد وسائل الاتصالات العديدة ، عقدت منتديات إلكترونية ، وصار لبعض الأسر مواقع على الإنترنت بل صار هناك قري ، أو بطون ، أو أفخاذ ، أو عشائر لها هي مواقع أيضاً ، ومن يستقريء أحوال بلاد عسير في الوقت الحاضر يجد مئات المواقع الإلكترونية ، وكل موقع يحتوي على معلومات متنوعة تخص أصحابه، وهذا أمر محمود إذا كانت أهداف هذه المواقع بناء القيم والمبادئ السامية بين أفراد العشيرة أو البطن المسؤول والممول لهذا الموقع ، والذي أخشاه هو تأصيل النعرات العنصرية القبلية التي لا فائدة من ورائها ، أو السير في طرق غير نافعة للفرد أو الجماعة أو الدولة .

كما برز مؤخراً لقاءات اجتماعية لبعض العشائر أو القبائل ، وغالباً ما تعقد هذه الملتقيات في فترة الصيف ، وتحدد عدة أيام يمارس فيها العديد من الأنشطة الثقافية والفكرية والعلمية والدعوية . ومما شاهدت في السنوات الأخيرة أن قامت بعض العشائر في منطقة عسير بمثل هذه اللقاءات وافتتحها وحضرها بعض مسؤولي الدولة. ومثل هذه الأنشطة أمر جيد إذا كان الهدف من وراء ذلك سامياً ، لكن الذي أخشاه هو ما يلي :

أ - تأجيج النعرات القبلية وتشجيعها على حساب الوحدة الوطنية، ففي المحافظة الواحدة نلاحظ بعض القبائل تتفنن في الدعاية والإعلان على كل ما تريد عمله ، وهذا مما يجعل القبائل الأخرى

المجاورة تجاربها مستقبلاً وتفعل أفضل مما فعلت غيرها ، وهكذا يظهر سباق في مثل هذه الأعمال التي لا تقوم على قاعدة راسخة وتخطيط سليم له أهداف مستقبلية سليمة وقوية . والواجب على كل محافظة ممثلة في المحافظ نفسه ومن حوله من مسؤولي الدولة أن يوحدوا مثل هذه الجهود المتفرقة في عمل موحد يحمل شعار الدولة ووحدهما .

ب - يجب الاستفادة من التاريخ ، ففي السابق ظهر من خلال التجمعات الصيفية أو الدعوية أو الجهادية أو غيرها من نشر بعض الأفكار الهدامة أو المنحرفة بين الشباب ، ومن ثم ظهرت العديد من الآثار السلبية الضارة بمصلحة الدين والوطن ، وظهر مثل هذه اللقاءات المبعثرة ، والتي قامت بجهود فردية ، قد يفرخ في ثناياها ما لا يحمد عقباه من الأفكار والسلوكيات الخاطئة والخطيرة .

ج - بعثرة الأموال ، وتشتيت الجهود ، وعدم توحد الأهداف ، وانعدام التخطيط الاستراتيجي العام لمثل هذه الأنشطة ، سوف يكون له بالتأكيد آثاراً سلبية على أمن ووحدة واقتصاديات البلاد .

خامساً : الوضع الاقتصادي :

كانت اقتصاديات البلاد العسيرية في السابق ضعيفة وبسيطة جداً ، فكل ناحية تعتمد على ما يتوفر عندها من رعي ، أو صيد ، أو جمع للحطب ، أو زراعة ، أو حرف ومهن متنوعة أو تجارة وغيرها^(١) . والناس جميعهم يعيشون عيشة الكفاف

(١) للمزيد انظر : ابن جريس ، عسير (١١٠٠ - ١٤٠٠ هـ) ، ص ١١٩ وما بعدها .

وأحياناً كثيرة يخيم عليهم الجوع والحاجة الماسة وبخاصة عندما يصابون بأمراض تفني الكثير منهم ، أو يحل عليهم قحط ومجاعات تقضي على مزارعهم ودوابهم وذرايعهم^(١). ولا نريد الإطالة والتفصيلات في أحوال الناس الاقتصادية خلال القرن الرابع عشر الهجري (العشرين الميلادي) ، لأنه سبق وأن أخرجنا أكثر من دراسة منشورة في هذه الجوانب^(٢). ولكن ما نود الإشارة إليه هو التطور الذي مرت به البلاد منذ بداية القرن الخامس عشر الهجري (الواحد والعشرين الميلادي)، وهذا ما سوف نذكره في النقاط التالية :

١. الرعي والصيد ، والجمع والالتقاط :

كان الرعي في السابق نشيطاً جداً ، والكثير من سكان منطقة عسير كانوا رعاة، ولديهم أعداد كبيرة من الأغنام والماعز والجمال والحمير والأبقار ، ومنهم من جمع بين الزراعة والرعي وأحياناً الصيد والجمع والالتقاط^(٣). وخلال الثلاثة العقود المتأخرة الماضية ترك العسيريون هذه المهمة ، والتحقوا بأعمال تجارية وحكومية أخرى عديدة ، وتراجع أعداد الرعاة وملاك المواشي^(٤). وكانت جميع البهائم في السابق محلية ، أما اليوم فصار يرد إلى أسواق عسير مواشٍ وبهائم من أنحاء الجزيرة العربية ومن خارجها ، بل إن الرعاة في الماضي كانوا أبناء البلاد أنفسهم ، أما الوقت الحالي فأغلب الذين يقومون بالعمل في الرعي هم

(١) المصدر نفسه ، ص ١٨٩ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٢٠ وما بعدها . للمزيد انظر: ابن جريس " ملامح النشاط التجاري لبلاد تامة والسرارة في العصور الوسطى . بحث قدم ضمن الندوة التي عقدها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة (٢٥ - ٢٧/٨/١٤٢١هـ - الموافق ٢١ - ٢٣/١١/٢٠٠٠م) . ونشرت ضمن بحوث الندوة في كتاب . طريق التجارة العالمية عبر العالم العربي على مر عصور التاريخ (حصاد رقم ٨) القاهرة : منشورات اتحاد المؤرخين ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م) ، ص ١٥٧ وما بعدها .

(٣) هذا ما عاصره الباحث خلال العقود الأخيرة من القرن (١٤هـ / ٢٠م) بل وبداية القرن الحالي .

(٤) المصدر نفسه .

من أجناس عربية وغير عربية تم استقدامهم من خارج البلاد^(١). كما جرى على الجمع والالتقاط الكثير من المتغيرات فلم يصبح هناك جمع والتقاط بنفس الحجم الذي كان سابقاً. فأغلب الناس - رجالاً ونساءً - كانوا يعملون على جمع الحطب الذي يطهون به أطعمتهم ويستدفنون به في أوقات البرد، أما في العقود الأخيرة فقد اندثرت هذه المهنة ولم يصبح هناك إلا أعداد محدودة من تجار الحطب الذين يبيعون سلعتهم في الأسواق لمن أراد استخدامها وقت الحاجة، مع أن الحاجة إليها أصبحت غير ضرورية وبخاصة عندما جاءت الكهرباء، والغاز، ومشتقات البترول الأخرى.

والصيد قديماً كان يمارس من قبل الرجال بشكل كبير، بل إن بعض الصيادين يعيشون على ما يتم صيده بينادقهم وحيل أخرى عديدة يمارسونها مع ما يريدون اصطیاده من الطيور، والغزلان وغيرها^(٢). ولا زال حتى اليوم هناك ثلة قليلة جداً من أبناء الأرياف يمارسون مهنة الصيد للتسلية وليس للحاجة، وقد أصدرت الدولة أنظمة وقوانين عديدة تحارب الإفراط في ممارسة الصيد، وفي قطع أشجار الغابات، أو القيام بأي أعمال تسيء إلى البيئة^(٣). ومنذ عقدين تقريباً كان أهالي عسير لا يستطيعون الاتصال بالبحر لاصطياد الأسماك، لأنهم لم يكن لهم منفذ جغرافي على البحر الأحمر، وعندما أجريت بعض التعديلات على جغرافية إمارات مكة المكرمة، وعسير، وجازان، صار لإمارة عسير مسافة طولية تقدر بـ(٢٠٠ كم) على

(١) مكاتب الاستقدام في المملكة وإدارات الجوازات تؤكد على كثرة أعداد الأجانب في بلادنا وبخاصة العاملين في مهن الرعي والزراعة والتجارة وغيرها.

(٢) للمزيد عن كيفية ممارسة الصيد وكذلك مهنتي الرعي والصيد انظر: ابن جريس، عسير (١١٠٠ - ١٤٠٠هـ)، ص ١٢٢ - ١٢٨.

(٣) هناك الهيئة العامة للحياة القطرية في المملكة، من أهم المؤسسات التي تعمل جاهدة على حماية البيئة وما تحويه من حيوانات وطيور وأشجار وغيرها من الدمار والهلاك.

شاطئ البحر ومن ثم صار كثير من صيادي عسير يرتادون البحر لصيد الأسماك وجلبها إلى أسواق المنطقة^(١).

٢. الزراعة :

كان هناك شريحة واسعة من سكان منطقة عسير يمارسون الزراعة ، ولازلنا نشاهد الكثير من المزارع المهجورة في أنحاء البلاد ، وكانت في الماضي أهم ما يملك الإنسان ، ولكن بعد تحسن أوضاع الناس الاقتصادية اضطر كثير من ملاك المزارع إلى هجرها ، وأحياناً إلى استبدال بعضها بأراضٍ سكنية ، أو بيعها إلى تجار العقار الذين حولوها إلى مخططات سكنية . والمتجول في أنحاء منطقة عسير يجد كثيراً من الأراضي الزراعية الشاسعة القديمة قد حولت إلى مدن وقرى وأحياء سكنية^(٢). وهذه ظاهرة عامة حلت بسكان بلاد عسير خلال العقود الأربعة الأخيرة ، وبخاصة بعد توفر الأموال الكثيرة في أيديهم ، وبجهود أقل بكثير مما يبذل في الأعمال الزراعية .

ولازلنا نشاهد بعض المزارع المحدودة في أنحاء المنطقة ، لكنها لأسر ، أو أفراد يمتلكونها من باب المتعة والاستجمام ، فتراهم يقضون بها أوقات فراغهم وإجازاتهم مع أهليهم وذويهم^(٣). والبعض منهم يضع بها العديد من العمال لزراعة الثمار والخضروات فيها ، وأحياناً يقوم بعض العمال المتقدمين باستئجار المزرعة من صاحبها من أجل خدمتها والمتاجرة في منتجاتها الزراعية^(٤).

(١) ونلاحظ أن أسواق عسير مليئة بالأسماك التي تجلب من ساحل البحر الأحمر وتباع على الناس وبأسعار جيدة ومعقولة .

(٢) هذا ما شهدته البلاد من تطور ونمو خلال الثلاثة عقود الماضية ، وإذا كان هناك توسع في المدن والعمران ، إلا أن هناك تدهوراً وتقهقراً في ميدان الزرع والزراعة .

(٣) هذه المزارع ليست كثيرة لأن التطور العمراني والعقاري طغى على غيره من الأنشطة الحضارية الأخرى .

(٤) يلاحظ أن كثيراً من العمال غير السعوديين يجنون أرباحاً جيدة من خلال المزارعة في بعض مزارع المواطنين . ومن المؤسف حقاً أن كثيراً من الشباب السعودي يقضي أوقاته الطويلة فيما لا ينفع ويترك مثل هذه المجالات والمهن الجيدة التي تعود على من يعمل فيها بمكاسب جيدة .

أما الحشائش والأعشاب والغابات في أنحاء عسير فقد سادها التدهور ، وذلك لما يقوم به الإنسان من جرف وتدمير للكثير منها يوم يقوم باستحداث منزل أو استراحة ، أو بلدة جديدة ، بالإضافة إلى التوسع في شق الطرقات والبناء والعمران، وهذا كله كان له جوانب سلبية على الغطاء النباتي في البلاد وعلى ما تمتاز به منطقة عسير من طبيعة جغرافية جميلة^(١).

٣. المهن والحرف اليدوية :

كان العسيريون يعتمدون على أنفسهم في ممارسة جميع مهنتهم من صناعات حديدية ومعدينية ، وخشبية ، وجلدية ، وفخارية ، وصناعة للمنسوجات وغيرها من الحرف الكثيرة والمتنوعة^(٢). ومع ظهور وتطور التنمية الصناعية والحضارية التي تمر بها المملكة العربية السعودية ، بدأت كل هذه المهن تتراجع ، ولم تصبح متوفرة ونشطة كما كانت في السابق^(٣). وحلت الآلة والتقنية ، وفتحت الورش والمصانع التي تدار بالآلات بدلاً من الأعمال اليدوية التي كانت سائدة في الماضي . والمتجول في أرجاء المملكة العربية السعودية ، أو في منطقة عسير على وجه الخصوص يشاهد آلاف الصناعات والورش الصناعية المختلفة ، بل يشاهد الكثير من الأدوات التي تستخدم في جميع المجالات المهنية وجميعها مستوردة من مدن ومصانع كبرى داخل المملكة وخارجها . كما أن معظم الأيدي العاملة في هذه الصناعات من الوافدين من بلدان كثيرة في العالم العربي ، والإسلامي وغير الإسلامي^(٤).

(١) للمزيد عن جغرافية عسير انظر: الشريف ، جغرافية المملكة ، ٢٧٥-٢٣٣ ، ٤١٣-٤٤٣ .

(٢) للمزيد عن الحرف والصناعات قديماً انظر ، ابن جريس ، عسير (١١٠٠-١٤٠٠هـ) ، ص ١٤٧ وما بعدها.

(٣) هذا ما نشاهده اليوم ، ومن يزر مهرجان الجنادرية أو المتاحف المنتشرة في طول البلاد وعرضها . يجد أن تلك الحرف انقرضت ، وصارت فقط جزءاً من التراث .

(٤) الذي يزور المدن الصناعية في منطقة عسير أو غيرها من مناطق المملكة يجد معظم العاملين في تلك المدن من غير السعوديين ، وهناك مليارات الريالات التي يجنيها هؤلاء العمال وتخرج من البلاد إلى الخارج . وشبابنا - هدهم الله - عاطلون غير راغبين في أعمال ذات أرباح جيدة كالمهن والحرف الصناعية والتقنية المتنوعة والموجودة في كل صقع من أصقاع البلاد .

٤ . التجارة :

منطقة عسير ذات موقع جغرافي استراتيجي في مجال التجارة ، لما يتوفر بها من تضاريس متنوعة ، وموارد طبيعية ، و ثروات نباتية وحيوانية . وهناك العديد من البحوث والدراسات التي فصلت الحديث عن الحياة الاقتصادية في بلاد عسير وبخاصة التجارة ، فذكرت العوامل المساعدة لممارسة التجارة خلال القرون والعقود الماضية المتأخرة ، والطرق التجارية التي كانت مستخدمة وترتبط أجزاء منطقة عسير مع غيرها، كما عرجت للحديث عن الأسواق الأسبوعية ، والصادرات والواردات، وطرق التعامل التجاري الأخرى مثل : العملات ، والموازن والمكاييل والمقاييس التي كانت تستخدم في الأعمال التجارية ودور القبائل في حماية الأسواق ، وما كان يقوم به المحتسبون وعمال الأسواق من مراقبات وتنظيمات لسير الحركة التجارية^(١).

أما وسائل النقل والمواصلات فكانت قائمة على الدواب مثل : الجمال ، والحمير التي يستخدمها التجار والمسافرون لنقل بضائعهم ، وحمل أثقالهم . ومعظم الناس كانوا يمشون على أقدامهم لحضور أسواقهم الأسبوعية ، وشراء ما يحتاجونه في حياتهم المعيشية^(٢).

هكذا كان وضع الحياة التجارية حتى الثمانينيات والتسعينيات من القرن الهجري الماضي ، ثم بدأت السيارة تصل إلى نواحي البلاد ، وصارت بعض المدن الكبرى في المنطقة تتسع في أعمالها التجارية ، وتدرجياً شقت الطرق

(١) هناك العديد من الدراسات العلمية لدرجتي البكالوريوس والماجستير والصادرة من أقسام التاريخ بفرعي جامعة الملك سعود والإمام محمد بن سعود في أبها ، ثم جامعة الملك خالد ، وجلها تتحدث عن تاريخ التجارة في منطقة عسير خلال القرون الماضية المتأخرة . والكثير من هذه الدراسات يوجد منها نسخة في مكتبة د. غيثان بن جريس العلمية (بحوث ودراسات غير منشورة)

(٢) المصادر نفسها . الأسواق الأسبوعية القديمة جدية بالدراسة جيدا أن يظهر من طلابنا وطلباتنا في قسم التاريخ بجامعة الملك خالد من يخرج دراسة أكاديمية عن أسواق عسير الأسبوعية ، والدور الذي كانت تؤديه في شتى مجالات الحياة العسيرية .

البرية^(١). وفتحت المطارات في كل من خميس مشيط وبيشة ، وتحسنت أوضاع الناس الاقتصادية ، وصار الوضع من حسن إلى أحسن حتى أصبحنا نشاهد آلاف الأسواق الكبرى والصغرى والمتنوعة في أهدافها ومعروضاتها، وجلبت السلع الكثيرة والإقليمية والعالمية إلى الأسواق المختلفة ، وجاءت الأيدي العاملة من أصقاع عديدة من العالم العربي وغير العربي^(٢). وليس هناك أي وجه للمقارنة بين التجارة قديماً وحديثاً ، والذي يرتاد بعض الأسواق الأسبوعية اليوم يشاهد نماذج كثيرة من السلع التجارية القديمة ، مع أن مكان السوق وطريقة العرض صارت أفضل مما كانت عليه في العقود المتأخرة من القرن الماضي . والمشاهد للأسواق الكبرى وحتى المتوسطة والصغرى الحديثة في المنطقة يجد البون شاسعاً بين الماضي والحاضر^(٣).

سادساً : الوضع التعليمي ، والثقافي والفكري :

حتى منتصف القرن الهجري الماضي كان التعليم محدوداً جداً ، وإذا وجد من يقرأ ويكتب فهم معدودون على الأصابع ، وغالبية سكان القرى والهجر آنذاك مقتصرين في تعليمهم على قراءة القرآن الكريم ، وأحياناً بعض كتب الحديث والعلوم

(١) قصص شق الطرق ووصول السيارات إلى أجزاء مختلفة من بلاد عسير جديرة بالبحث والدراسة. ولا زلنا نسمع قصصاً طريفة ومغامرات جبارة من بعض الذين شاركوا في فتح تلك الطرق وسعوا إلى إيصال السيارات إلى قراهم وهجرهم .

(٢) دراسة الأيدي العاملة في التجارة والأسواق التجارية جديرة بالدراسة فيوضح السلبيات والإيجابيات التي ظهرت في المجتمع السعودي من خلال جلب هذه العناصر البشرية المختلفة في لغاتها وثقافتها وتطلعاتها .

(٣) كان عرض السلع في الماضي يتم بطريقة بدائية ، أما اليوم فأصبح هناك شركات ومتخصصون في إعداد وتجهيز ديكورات الأسواق والأماكن التجارية المختلفة . للمزيد عن طبيعة الأسواق قديماً ،

الشرعية الأخرى^(١)، وعندما افتتحت المدارس النظامية في عسير في أوائل الخمسينيات ثم الستينيات من القرن الماضي، جُلب إلى المنطقة بعض رجال العلم والمعرفة، وبدأ التعليم يتسع، وصارت الثقافة تنتشر بين الناس، ولم يأت نهاية الثمانينيات من القرن نفسه، إلا وصار هناك الكثير من المدارس والمعاهد (بنين وبنات)^(٢). وهكذا توسعت القاعدة الرئيسة للتعليم، وازدادت المدارس، ثم فتحت مراكز التعليم العالي في أواخر القرن الهجري الماضي، واستمر التطور في جميع قطاعات التعليم، وفي خلال ثلاثة عقود (١٤٠٠-١٤٣٠هـ / ١٩٨٠-٢٠١٠م)، صارت منطقة عسير من المناطق الكبرى في المملكة، لما تحويه من إدارات تعليم للبنين والبنات وما يوجد تحت مظلة هذه الإدارات من مدارس نظامية عادية، ومدارس لتحفيظ القرآن الكريم، ومعاهد عديدة ومتنوعة في مجالاتها. كما يوجد بالمنطقة العديد من المدارس والمعاهد والكليات الفنية والتقنية، بالإضافة إلى العديد من كليات التعليم العالي التابعة سابقاً إلى جامعتي الملك سعود والإمام محمد بن سعود الإسلامية، والتي جمعت جميعها في عام (١٤١٩هـ / ١٩٩٩م) تحت مظلة جامعة الملك خالد^(٣). ثم ازدادت الكليات (بنين وبنات) حتى صارت جميع محافظات عسير تحظى بمراكز وكليات علمية عالية، وأصبح

(١) لمزيد من التفاصيل عن تاريخ التعليم والمجال الثقافي في منطقة عسير خلال العقود الماضية المتأخرة، انظر: ابن جريس، تاريخ التعليم في منطقة عسير (١٣٥٤-١٣٨٦هـ / ١٩٣٤-١٩٦٦م) (جدة: دار البلاد للطباعة والنشر، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م). ج ١، ص ١٧ وما بعدها، للمؤلف نفسه، أما حاضرة عسير، ص ٩٠-١٦٢.

(٢) المصادر نفسها، للمزيد انظر: ابن جريس. القول المكتوب في تاريخ الجنوب (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م) ص ٢٢ وما بعدها. الجزء الأول.

(٣) عاصر الباحث تطور التعليم منذ العقدين الأخيرين في القرن (١٤هـ / ٢٠م)، ولا زال حتى اليوم يعمل أستاذاً بجامعة الملك خالد. فهو شاهد عيان على ما جرى من تطور في المجال التربوي والتعليمي والثقافي، كما أصدر العديد من الكتب والدراسات في هذا المجال. ولا زالت الحقبة الأولى من بداية التعليم النظامي في عسير بل في جنوب المملكة جديرة بالبحث الأكاديمي الرصين جيداً أن نرى من الباحثين أو من طلاب الدراسات العليا من يتصدى لمثل هذا الموضوع الهام.

أعداد الطلاب والطالبات التابعين للجامعة يزيد عن (٧٠,٠٠٠) سبعين ألف طالب وطالبة^(١).

أما المناهج المستخدمة في التعليم سابقاً والقائمون على التعليم حتى أواخر القرن الماضي فكانوا من جنسيات عربية وغير عربية ، ولم يكن للسعودي ذلك الحضور المذكور في مجال التعليم وبخاصة التعليم العالي^(٢). وبعد التوسع في مجال التعليم نشاهد أن جميع المناهج أصبحت محلية بعد أن كانت تستورد من دول عربية شقيقة وبخاصة جمهورية مصر العربية ، وبعض بلدان الشام ، أما المعلمون والمعلمات فصاروا جميعاً من السعوديين^(٣). وذلك بخلاف معاهد وكليات التعليم العالي فلا زال معظم القائمين على التعليم فيها وبخاصة في المجالات العلمية والتقنية من عناصر غير سعودية^(٤). أما المجالات الإنسانية والنظرية فالأكثرية من السعوديين ، ولا زال يعمل في هذه الكليات عناصر أكاديمية عربية من خارج السعودية^(٥).

وازدادت حركة البحث العلمي والنظري في المنطقة ، وصار هناك العديد من المراكز البحثية التابعة لجامعة الملك خالد ، بالإضافة إلى المكتبة الجامعية المركزية، وكذلك المختبرات العلمية التابعة للكليات العلمية مثل (الطب ، والهندسة ، وطب الأسنان ، والحاسب الآلي) وغيرها^(٦). ناهيك عن المعلمين وأصحاب الشهادات

(١) معاصرة الباحث لهذا النمو والتطور التعليمي في المنطقة .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) نلاحظ طفرة كبيرة في فتح مؤسسات تعليمية عالية ، والمهم هو تأهيل كوادر بشرية جيدة تعمل في هذه المؤسسات ، ولازلنا نعاني من نقص كبير في الكوادر الوطنية ، ولن تغلب على هذه المشكلة إلا بإعطاء فرص للطالبات والطلاب المميزين كي يكملوا دراساتهم ويلتحقوا بهذه المعامل العلمية العالية .

(٥) معاصرة الباحث لهذا التطور التعليمي في منطقة عسير وغيرها من المناطق الأخرى في جنوب البلاد السعودية .

(٦) معاصرة الباحث لهذا التطور التعليمي في منطقة عسير وغيرها من المناطق الأخرى في جنوب البلاد السعودية .

العليا من السعوديين أو أبناء منطقة عسير ، فقد صار المعلمون والمعلمات بالآلاف ، أما الأكاديميون في الجامعات فعددهم بالمئات وفي مجالات وتخصصات عديدة ، بل أصبح فيهم أساتذة ومتخصصون مشهورون على مستوى العالم العربي والعالم في مجالات تخصصاتهم ومجالاتهم العلمية والإبداعية ^(١).

والناظر في مصروفات التعليم قديماً وحديثاً ، يجد أنها كانت بسيطة ومحدودة، ففي الستينيات من القرن الهجري الماضي كانت بالريالات والقروش القليلة ^(٢)، أما اليوم فأصبحت بأرقام خيالية تدخل في خانة المليارات ، بل إن المشاريع التي تم إنجازها في العقدين الماضيين يعجز الوصف عن شرحها لما يظهر عليها من الضخامة والكثرة ، ونلاحظ في وقتنا الحالي ، وفي عهد الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود ، إن بلاد عسير ، بل عموم المملكة العربية تشهد مشاريع جبارة ، ومجال التعليم من أهم المجالات التي حظيت بنصيب الأسد في هذا الجانب .

وإذا عرجنا على الجانب الدعوي والفكري والثقافي في المنطقة ، فهو الآخر من المجالات التي نالها الدعم والرعاية . فالدعوة مثلاً نجدها راسخة بين أبناء منطقة عسير، وهذا الرسوخ لم يكن وليد الساعة وإنما يعود مئات السنين إلى الوراء ، أي منذ قدوم الإسلام إليها في عهد الرسول ﷺ وبقيت صافية من الشوائب ^(٣). حتى جاءت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في أوائل القرن (١١٣هـ / ١٩م) فعمت آثار تلك الدعوة كل ناحية في بلاد عسير ، وصار المذهب الحنبلي هو السائد في البلاد بعد أن كان

(١) المصدر نفسه .

(٢) يوجد لدى الباحث عشرات الوثائق التي توضح مقدار المصاريف التي كانت تنفق على التعليم في منطقة عسير . المصدر : مكتبة د . غيثان بن جريس . العلمية . الوثائق العامة . مجلدات عديدة .

(٣) للمزيد عن تاريخ الإسلام في بلاد عسير منذ فجر الإسلام ، انظر: ابن جريس: دراسات في تاريخ تهامة والسراة خلال العصور الإسلامية المبكرة والوسيلة (١ ق - ١٠هـ / ١ ق -

الانتشار الأكبر للمذهب الشافعي^(١). ومع ظهور الملك عبد العزيز ، وضم منطقة عسير ، بدأت الدولة السعودية الحديثة تولي الدعوة الشيء الكثير ، فأرسلت الدعاة وطلاب العلم لتعليم الناس وتفتيهم ، والفصل في خصوماتهم ، وتقسيم موارثهم ، بل فتحت المعاهد العلمية الشرعية ، وأخيراً فتحت كلية الشريعة وأصول الدين في أبها عام (١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م) ، فكان لهذه الكلية أثراً عظيماً في تنوير الناس وتوعيتهم في جميع أمورهم العقدية والدينية ، وتخرج من هذه الكلية آلاف الطلاب الذين خدموا بلادهم في مجالات كثيرة وأغلبها في القطاعات الدعوية^(٢). كما أنشئت العديد من المؤسسات الإدارية الدعوية التي تشرف على سير الدعوة في المنطقة . ومن أهم تلك الإدارات : هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإدارة الدعوة والإرشاد^(٣). وكذلك إدارة دعوة الجاليات التي تقوم على دعوة غير المسلمين في منطقة عسير إلى الإسلام^(٤). وقد بذلت الدولة جهوداً تذكراً فتشكر في بناء المساجد ودور العبادة والتي

(١) جاء الإمام الشافعي إلى اليمن وتولى مناصب الولاية والقضاء في نجران ، وانتشر مذهبه في معظم الأجزاء الجنوبية من الجزيرة العربية . انظر: أبو بكر أحمد البيهقي . مناقب الإمام الشافعي . تحقيق السيد أحمد نصر (القاهرة : دار التراث ، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م) ، ج ١ ، ص ١٠٥ وما بعدها ، عبد الرحمن بن محمد الرازي . آداب الشافعي ومناقبه . تحقيق عبد الغني عبد الخالق (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٦هـ) ، ص ٣٢ وما بعدها .

(٢) كان الباحث مع أوائل الطلاب الذين سجلوا في كلية الشريعة بأبها عام (١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م) ، ومع أنه لم يستمر في هذه الكلية إلا أنه كان معاصراً لنشأتها وتطورها التاريخي ، ومن قام على إدارتها ، وعرف مئات الطلاب الذين تخرجوا فيها ، وما قامت به في سنواتها الأولى من دور جبار في توعية الناس وتبصيرهم في أمور دينهم . وأن دراسة تاريخ هذه الكلية وغيرها من مؤسسات التعليم العالي في أبها جديرة بالبحث والتقصي والدراسة العلمية الجادة ، هذا أن نرى من يولي هذا الموضوع كبير اهتمام وبخاصة من الباحثين أو طلاب الدراسات العليا في جامعاتنا السعودية .

(٣) للمزيد عن تاريخ هاتين المؤسستين انظر: ابن جريس ، أبها حاضرة عسير ، ص ٣٠٩ - ٣٤٥ .

(٤) المصدر نفسه .

تدخل إعدادها في خانة الآلاف^(١) ، وعينت لتلك المساجد موظفين من أئمة ومؤذنين وعمال يقومون على رعايتها ، ويتقاضون رواتبهم من ميزانية الدولة^(٢) .

وإذا تأملنا في الجانب الفكري بالمنطقة منذ بداية النصف الثاني من القرن الهجري الماضي حتى الآن ، فلا مجال للشك أن المستوى الفكري عند عامة الناس قد تحسن ، أما عند خاصتهم وبخاصة المتعلمين والذين نالوا قسطاً من الثقافة والمعرفة فوضعهم أفضل بكثير من عامة الناس ، وقد شاهدنا ولازلنا نشاهد ظهور عشرات الكتاب أو من يحمل فكراً معيناً مثل : كتابة الشعر وقرضه ، أو تأليف الكتب ، أو الروايات ، أو القصص المتنوعة في أبوابها ، بل هناك من ألف مؤلفات في بعض القضايا الشرعية أو اللغوية أو الفكرية أو العقديّة . وهذه الأنشطة تزايدت وكثرت منذ بداية القرن (١٥هـ / ٢٠-٢١م)^(٣) .

كما ظهر فكر عقدي يشوبه الكثير من المغالطات ، وذلك بسبب بعض الأحداث العالمية وبخاصة حرب أفغانستان مع الروس ، وكذلك تشابك الأوضاع السياسية في العالم ، فلم تسلم المملكة العربية السعودية من تلك الإرهاسات ، ومن ثم خرج من دعائنا ، وأساتذة التعليم والجامعات عندنا ، ومن شبابنا وربما بناتنا من له قناعة فكرية فيما يحدث على الصعيدين الداخلي والخارجي ، وعندئذ ذهب الكثير من شباب المملكة بشكل عام ومن منطقة عسير بشكل خاص إلى المشاركة في حرب أفغانستان، كما ذهب بعضهم إلى حرب البوسنة والهرسك ، وأخيراً إلى حروب العراق والصومال، فتعلموا كثيراً من التعليمات الفكرية والعقدية التي يرون صحتها ، ومن ثم صاروا ينظرون إلى حكام البلاد الإسلامية وولاة أمرها بأنهم على ضلال ، بل صار الكثير منهم ينادي بجرهم والوقوف في وجوههم

(١) المصدر نفسه .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) للمزيد انظر عبد الرحمن حامد . منطقة عسير (دليل جغرافي شامل) (أبها : النادي الأدبي ،

والأدهى من ذلك، أنه صار البعض من هؤلاء الشباب يعودون إلى أوطانهم من أجل نشر الفوضى والدمار في بلادهم^(١). وقد شاهدنا في السنوات الماضية الأخيرة الكثير من الذين ظهرت أسماءهم على شاشات (التلفاز) الرائي ، وهم يفجرون أنفسهم في بعض المؤسسات الحكومية ، أو الجماعات السكنية في البلاد ، بل ظهر أيضاً بعض من يسمون أنفسهم بـ (طلاب العلم) وأفتوا بجواز مثل هذه الأعمال التخريبية مع أن الدولة لم تأل جهداً في سلك جميع السبل التي تساعد هذه الفئات على التوبة والرجوع عما تدعو إليه^(٢). ومن المؤسف أن أخطار وشرور هؤلاء الجماعات تتزايد، وأصبحت لا تقتصر على ناحية دون الأخرى ، بل صار لها ذيول وفروع في الداخل والخارج ، ولم يصبح القضاء عليها محصوراً في مكان محدد ، ومن ثم وجب على الدولة وجميع دول العالم أن تنشئ مراكز علمية متخصصة لدراسة هذه الظواهر الفكرية المتطرفة ، ويجب أن تكون الحلول علمية ومقنعة بعيدة عن العنف ، لأن استخدام القوة قد لا يحقق نتائج إيجابية مقارنة باستخدام أسلوب الحكمة والتعقل ، والتعاون وتضافر الجهود الحقيقية الصادقة^(٣).

أما الثقافة بشكل عام في منطقة عسير فقد نشطت منذ فتح المدارس النظامية، ومنذ أنشئت المؤسسات الحكومية الأولى في القرن الهجري الماضي ، ثم تزايد الوافدون المتعلمون إلى هذه البلاد ، وجلبوا معهم أفكاراً وثقافات مختلفة ، بل جلبت الكتب

(١) شاهدنا في السنوات الماضية المتأخرة العديد من التفجيرات التي قام بها بعض أبنائنا تحت مظلة الجهاد ، وفي حقيقة الأمر أهم على ضلال لما يقومون به من خراب ودمار في البلاد ، بل قتل أناس أبرياء من عامة الناس .

(٢) ما تقوم به وزارة الداخلية مشكورة من جهود كبيرة في توعية الشباب والعمو عمن وقع في هذه المسالك الخاطئة المنحرفة على شريطة أن يسلك سبيل الهدى والرشاد ويعودون إلى صوابهم وجادة الحق .

(٣) في الواقع إن العنف لا يحقق أي نجاح أو انتصارات ، وإذا حقق بعض الإنجازات المحدودة ، فإن استمرارية الأمن وحل الأمور حلاً جذرياً غير وارد على الإطلاق . والأفضل البحث عن حلول عملية وسلمية تقضي على مثل هذه الأفكار الهدامة التي أنتجت لنا العنف والخراب والهلاك .

والمجلات والجرائد ، وأنشئت مراكز علمية وثقافية مثل : إدارات التعليم ، والجامعة بجميع فروعها وكلياتها ، وكذلك النوادي الأدبية والرياضية والثقافية ، وجريدة محلية هي : جريدة الوطن ، بالإضافة إلى استيراد العديد من المجلات والجرائد المحلية والإقليمية والعالمية^(١).

وأخيراً عالم الاتصال وعلى رأسها الشبكة العنكبوتية (الإنترنت) ، الذي أصبح صاحب القدر المعلى في الاستخدام ، وللأسف أن هذه الوسيلة الهامة للثقافة والاتصال سلاح ذو حدين ، لما تشتمل عليه من السلب والإيجاب ، والذين يستخدمونها كثيرون وبخاصة من الشباب والشابات ، وأحياناً قد يكون اطلاعهم على كل ما يחדش الحياء ويهدم القيم والمبادئ الأصيلة ، ولهذا لا بد أن يتم التعامل مع هذه الوسيلة بكل حذر ، وعلى كل راعي أسرة ، وكل مسؤول في مؤسسته الإدارية أن يراقب الله فيمن يرعى ، ويحرص على تسخير هذه الوسيلة في كل ما هو نافع ومفيد للعام والخاص .

سابعاً : الخاتمة : نتائج وتوصيات الدراسة :

وبعد هذا العرض التاريخي الحضاري الموجز ، فقد خرجنا بالعديد من النتائج والتوصيات التي نسردها في النقاط التالية :

١ — منطقة عسير جزء محدود من جنوبي البلاد السعودية مكتظة بالسكان ، ومزدحمة بموروث تاريخي كبير ، ولذا وجب على أبناء هذه النواحي ممثلة في طلاب العلم ، والمراكز العلمية البحثية أن تولي هذه الديار كبير اهتمام

(١) لمزيد من التوضيحات عن الأنشطة التعليمية والثقافية في منطقة عسير منذ منتصف القرن الهجري الماضي حتى اليوم ، انظر: ابن جريس . تاريخ التعليم ، ج ١ ، ص ٢٤ وما بعدها للمؤلف نفسه : أما حاضرة عسير ، ص ٩٠ — ١٧٩ ، للمؤلف نفسه : القول المكتوب في تاريخ الجنوب ، ج ١ ، ص ٢٢ ، ٢٥ .

فتدرس جذورها التاريخية والفكرية والحضارية ، وتقارن ما مرت به هذه البلاد مع ما تعيشه في وقتنا الحاضر من نمو وازدهار .

٢ - بلاد عسير وما جاورها من البلدان السعودية ، وبخاصة المواطن الممتدة من مكة المكرمة والطائف شمالاً إلى جازان ونجران جنوباً تتنوع في تضاريسها ، وأجوائها المناخية ، وفي عاداتها وتقاليدها ولهجاتها ، وفي جميع موروثاتها الشعبية . وهذا مما يزيد من أسهم هذه الأوطان ، فتركز الجهود على تطويرها سياحياً وحضارياً ، وإذا تم ذلك ، فإنها بدون شك سوف تكون من مناطق الجذب السياحي على مستوى المملكة وعلى مستوى العالمين العربي والغربي ، وعندئذ خيرها لن يكون مقصوراً على ساكنيها ، وإنما على جميع مجالات الدولة وبخاصة الجانب الاقتصادي فيها .

٣ - نعم لقد استعرضنا نقاطاً تاريخية وحضارية عديدة ، وبعضها يتخلله الكثير من السلبيات، لكن ذلك لا يعني أن أحوال البلاد كلها تسير في الاتجاه السلبي ، فهذا غير صحيح ، ولكن دورنا كمواطنين في هذه البلاد ، وتحت مظلة دولتنا الرشيدة ، لا بد من التنويه إلى كثير من الأمور الخاطئة أو التي تقود إلى دمار البلاد وتخلفها ، مع إيجاد الحلول العلمية المبنية على أسس علمية ، وهذه مهمة أصحاب الحل والعقد في هذه البلاد ، بل مهمة المراكز العلمية والفكرية أيضاً ، وكون هذه البلاد الجنوبية تحتضن عدة جامعات ، فالمطلوب من القائمين والعاملين في هذه المؤسسات العلمية أن تستشعر مهمتها تجاه طلابها ، ومواطنيها ، وحكومتها وتعمل على كل ما يرتقي بمجتمعاتنا إلى سلم الوعي النظيف ، والتقدم والرقي بأحوال المجتمعات المادية والمعنوية .

٤ - لو عملت كل أسرة ، وكل مجتمع ، وكل فرد منا ما في وسعه على تطوير بلادنا ، ونبذنا الأنانية ، واستشعار أهمية المواطنة الصادقة المبنية على ثوابت شرعية واضحة، فإننا بدون شك سوف نكون أعضاء صالحين على المستويين العام والخاص. ويجب أن ندرك ما كان فيه الأوائل من فقر وضيق ذات اليد ، وفي خلال أربعة إلى خمسة عقود أصبحت أوضاعنا الاقتصادية تضاهي كبريات

الدول في العالم . وهذا لم يحدث بجهودنا الذاتية . وإنما هو فضل من الله عز وجل على هذه البلاد ، ثم ما بذله المؤسس الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل ومن التف حوله من الرجال الصادقين الذين بذلوا الغالي والرخيص حتى تم التوحيد واجتماع الأمة تحت راية واحدة ، هي راية لا إله إلا الله محمد رسول الله . والواجب علينا جميعاً إدراك هذه الحقائق التاريخية ، ثم الحمد والشكر لله عز وجل والعمل بمجد واجتهاد في كل ما يعزز وحدتنا ، ويبنى بلادنا . وليس المقصود بالبناء هنا كل ما هو مادي ملموس ، كبناء القصور ، أو الدور أو ما شابه ذلك ، وإنما البناء الذي نحتاجه فعلاً ، هو بناء الأخلاق ، والقيم ، والثقافة ، والعلم والمعرفة . وهذا فعلاً ما يجب فعله ، وما نحن في أمس الحاجة إليه ، وأن لا نكون مخدوعين بما نحن فيه من ثروات وخيرات مادية، فجميعها قد تزول ، وفي لحة بصر ، أما بناء الفكر والعقل فهو الذي نحتاجه ونتطلع إليه . والناظر لأوضاع العرب والمسلمين بشكل عام يجد الحرب ، والشقاق ، والتخلف سائداً بينهم ، مع ما تمتاز به الكثير من بلادهم من مؤهلات قوية وجيدة قد لا توجد عند غيرهم في العالم . ولكن سوى تصرف بعض حكام المسلمين ، وكذلك ما يسود شعوب وأمم هذه البلدان من شقاق وخلافات كل هذا قاد إلى أوضاع متدهورة ، فلا قيم ، ولا مبادئ صادقة ، ولا علم يعتد به . وهذا مما جعل الجميع في آخر الأمم ، مع أن لدينا ديننا الذي ارتضاه الله لنا ، لكننا لم نعمل به ، ولم نسر على خطى رسولنا (ﷺ) فسلط الله علينا ، واجتالنا الفتن والرزايا من كل حذب وصوب .

٥ - أشرنا في طيات هذه الدراسة إلى بعض السلبيات على كثير من أساليب حياتنا المعيشية مثل : الطعام والشراب ، واللباس والزينة ، وعادات أخرى عديدة . ويجب أن نعلم أن حضارات الأمم تقوم على دعائم معنوية كثيرة ومنها التحلي بالقيم المثلى في كل أمورنا، وعقيدتنا التي تشتمل على كل الحلول الناجعة لكل سلبية أو مشكلة . والأهم أن تكون جميع سلوكياتنا وتعاملاتنا في الحياة مرتبطة بمنهج الشريعة الإسلامية الصالحة لكل زمان ومكان . وإذا سلطنا هذا الجانب

فجميع أحوالنا - بإذن الله تعالى - سوف تكون من حسن إلى أحسن ، بل يعيش الفرد نفسه في محيط المجتمع الصالح الإيجابي في كل قضاياها ومعطياته .

٦ - مقارنة أحوال بلادنا في الماضي والحاضر ، وما كانت عليه من جهل وفقر وتفكك وتحلف ، وكيف أصبحت اليوم أفضل مما كانت عليه . كل هذا يحتم علينا أن نستلهم العبر من الماضي لحاضرنا ومستقبلنا ، بل يجب أن ندرس التاريخ ونفهمه ، ثم نعمل على تطوير حياتنا المادية والمعنوية في إطار قيمنا ، وأعرافنا الجيدة والعريقة المستمدة من حضارة وهنئة العرب والمسلمين أيام العصور الإسلامية الذهبية.

٧ - إن وضع المجتمع العسيري في العصر الحديث والمعاصر ، مثل واقع أي مجتمع آخر في المملكة العربية السعودية ، وجميع هذه المجتمعات جديدة بالدراسة والاهتمام من كل المفكرين والمؤرخين والأدباء الصادقين المنصفين . وإنني من على صفحات هذا الكتاب أهيب بكل الصالحين الغيورين من أرباب القلم والفكر والبحث العلمي أن يسخروا علمهم وثقافتهم وفكرهم وبحوثهم في كل ما يعود على بلادنا ومجتمعاتنا بالفائدة والخير العميم . ويجب على الجميع من كل القادرين ، مادياً ومعنوياً ، أن يستشعروا واجبهوم ومهمتهم من أجل وطنهم ومقدساتهم وعقيدتهم فيبدلوا الغالي والرخيص في كل ما يقود إلى بناء مجتمع قوي في حضارته ، وعقيدته ، وثقافته . وإذا حصل هذا فالجميع سوف يعيشون تحت مظلة مجتمع راقٍ متطور في كل ركائزه الحضارية المادية والمعنوية .

٨ - المتأمل في أحوال العسيرين المادية يجدها جيدة ، وبخاصة الأغنياء والمقتدرين مالياً من أصحاب الأموال والثروات . وهذه الشريحة عليها مهمة عظمى تجاه مجتمعهم وبلادهم ووطنهم الكبير ، فيكونوا كرماء وأصحاب وطنية ، فيسخروا جزءاً من أموالهم في كل ما يصب إلى بناء فرد ومجتمع راقٍ متقدم . وهناك سبل عديدة للقيام بمثل هذا الواجب ، ولكن يجب أن تكون ضمن خطط علمية مدروسة . وأهم ما يجب التركيز عليه هو الفرد بالدرجة الأولى ، وبخاصة فئة الشباب والشابات ، فتوفر لهم البيئات الفكرية والعلمية والثقافية الجيدة التي تشكلهم

وتخرج منهم أفراداً ناجحين في حياتهم العلمية والعملية ، وإذا تم ذلك فإن فائدتهم ستكون كبيرة فتشمل مصالحهم الخاصة ، ومصالح الوطن بمفهومه الواسع . ومن يتجول في شوارع بلادنا ، وأسواقها ، ومترهاقها ، ومراكزها العامة والخاصة ، بل من يذهب إلى المؤسسات الإدارية الرئيسة التي تتعامل مع قضايا المجتمع بشكل عام ، ومع الشباب بشكل خاص فإنه يدرك ما تعاني هذه الشريحة الهامة والعريضة من مشاكل اجتماعية ، وثقافية وفكرية، واقتصادية ، بل يجد الكثير منهم وصل إلى درجة اليأس والإحباط ، ومن ثم أصبح خطرهم أكبر من نفعهم وجل مشاكل هؤلاء لا تكمن في فرد أو مؤسسة معينة ، وإنما الكل مسؤول ، الفرد أو الشاب أو الشابة نفسها ، والأسرة ، والمجتمع في إطاره الضيق، والدولة بمفهومها الواسع . بل إن المدرس في مدرسته ، والأستاذ في جامعته، والثري في ثروته ، والحاكم أو المسؤول في مسؤوليته ، والأم في منزلها أو عملها ، والصغير والكبير كل مسؤول عن حل مثل هذه المشاكل كل بقدر استطاعته ، وفي محيط مسؤوليته ، وإذا انتبه كل واحد منا إلى ما يجب له وعليه ، وعمل بما يليه عليه دينه وشرفه ومواطنته فإننا سوف نحقق بناء مجتمع متوازن في حضارته ورقيه وتقدمه. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على رسوله الأمين .